قلق الذات وهاجس الموت في مرحلة الشيخوخة
قصيدة «سبعون» لعبدالعزيز الرفاعي نموذجاً

د. طارق بن محمد المقيم[1]

(قدم للنشر في ٠٩/ ٠١/ ١٤٤٢هـ؛ وقبل للنشر في ١٥/ ٠٣/ ١٤٤٢هـ)

المستخلص: تأتي هذه الدراسة لتكشف عن أسباب استحسان النقاد لقصيدة «سبعون» للشاعر عبدالعزيز الرفاعي، ومدىٰ قدرته علىٰ إيصال تجربة قلقه من هاجس الموت، حيث ظهرت أعراض عدة تدل علىٰ ذلك القلق، منها: الرجوع إلىٰ الماضي واستلهامه، والتهويل مما لاقاه من زمنه، والشكوىٰ من كافة أمور حياته، وارتباط أجزاء القصيدة كافة بموضوع القلق. واستطاع الشاعر أن يستعين ببعض الحيل النفسية والتوافقية لتجاوز «هاجس الموت» من خلال استعانته بالأصدقاء، واستدعاء الكتاب ليجعله عوضا عما فقده من أصحاب وملذات الحياة الأخرىٰ، ليصل لدرجة الرضا والاستسلام في آخر المطاف. وأجاد الشاعر في نقل مشاعره بدقة، من خلال وسائل فنية عدة كالموسيقا الخارجية التي ناسبت الموضوع، والصور الفنية المركبة والمترابطة، كما حرص أن يقدم كلمات كان من حقها التأخير، لدلالتها علىٰ قلقه وصراعه النفسي دون تكلف من خلال اعتماده علىٰ لغة الفن واللاشعور.

الكلمات المفتاحية: عبدالعزيز الرفاعي، قلق الموت، صراع الذات، قصيدة سبعون.

* * *

(١) أستاذ مساعد في الأدب والنقد، قسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية، في كلية الدراسات العامة، بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران.

البريد الإلكتروني: mugimtm@kfupm.edu.sa

Self-anxiety and an obsession with death in old age The poem "Seventy" by Abdulaziz Al-Rifai as a model

Dr. Tariq bin Mohammed Al-Muqim

(Received 28/08/2020; accepted 01/11/2020)

Abstract: This study comes to reveal the reasons for the critics' approval of the "sabaun" poem by Abdulaziz Al-Rifai, and the extent of the poet's ability to communicate his experience of death anxiety and the conflict that the self faced with him, and the poet used several methods and strategies for that, such as returning to the past and, and exaggeration of what he found from his time And the large number of complaints about all matters of his life, and the subject of concern was what united the meanings of the poem and made it revolve around it. The poet was able to use some psychological and consensual tricks to overcome the "anxiety of death" through his use of friends, and when he missed them he called the book to make it instead of what he lost from other friends and pleasures of life, to reach the point of contentment and surrender in the end. Just as the poet was able to accurately convey his feelings, he did it by conveying it in an artistic way through an external music that matched the subject, as well as through multiple and interlinked artistic images, as he was keen to present words that were entitled to delay due to their indication of his anxiety and psychological struggle without cost by relying on the language of art And subconscious.

Keywords: Abdulaziz Al-Rifai, Death Anxiety, Self-Conflict, sabaun Poem.

❊ ❊ ❊

المقدمة

نقل الشاعر عبدالعزيز الرفاعي تجربته ومعاناته بطريقة إبداعية ومؤثرة في قصيدته «سبعون»، ولاقت هذه القصيدة استحسان كثير من الأدباء والنقاد، لكنها لم تدرس دراسة مفصلة، وظلت ضمن الأحكام الانطباعية، دون تفسير أو تعليل، وتأتي هذه الدراسة لتكشف أسرار ذلك الإعجاب وتعلله، من خلال رصد الجوانب الموضوعية التي عبر عنها الشاعر عندما واجه هاجس الموت، وطرائق دفعه ومسايرته، وكشف واقع التجربة السبعينية وما يكتنفها من صعوبات وتحديات.

كما نقل الشاعر تجربته بطريقة فنية، اختلفت عن تجاربه الشعرية السابقة، حيث امتاز بناؤها الفني بشكل أخاذ، ناسب عمق القصيدة وأفكارها، ولذا تأتي أهمية دراسة الجانب الفني لهذه القصيدة.

*** أهداف البحث:**

تأتي هذه الدراسة لتكشف ولتحلل القيم الفنية والموضوعية التي ميزت هذه القصيدة عن بقية القصائد، مما أدىٰ إلىٰ الإعجاب بها من قبل النقاد الخبراء، وكذلك من قبل عموم القراء الذين أثنوا علىٰ هذه القصيدة وأعجبوا بها من غير تحليل أو دراسة فنية، ومعرفة الوسائل الفنية والموضوعية التي استعان بها الشاعر في نقل تجربته بطريقة إبداعية، وطريقته في كشف المشاعر والأحاسيس اللاشعورية التي سكنته، وموازنتها بتجارب الشعراء المسنين من قبله، ويهدف البحث أيضا إلىٰ معرفة مظاهر قلق ذات الشاعر من هاجس الموت الذي ظهرت في هذه القصيدة، والوسائل التوافقية والحيل النفسية التي استدعاها الشاعر لمواجهة قلقه.

*** منهج البحث:**

والمنهج النفسي التحليلي خير معين للباحث في دراسة هذه القصيدة وفهم معانيها، وكشف أسرارها، مع الاستعانة بالمنهج الفني القائم علىٰ الملحوظات النقدية التي أقرها

الباحثون السابقون، لاسيما من درس شعر رثاء النفس ووصف مرحلة الشيخوخة، وهذه الدراسة تسعىٰ لإيجاد سبل أخرىٰ لتحليل النص الشعري والفني، من خلال التعمق فيه وفي ظروفه النفسية والعمرية ولتؤكد علىٰ أهمية ارتباط النص بقائله وبمرحلته العمرية، وعدم الاكتفاء ببنيته وشكله الخارجي فقط.

*** الدراسات السابقة:**

درس شعر عبدالعزيز الرفاعي وأدبه في دراسات عدة، كدراسة إبراهيم محمد الشتوي[1]، ومحمد مريسي الحارثي[2]، لكنها لم تدرس دراسة مفصلة، ولم يتعمق في معانيها ودلالتها وجمالياتها، واكتفىٰ النقاد بالاستحسان العام لها، دون تقديم ملحوظات تفصيلية لها، واتسمت أغلب هذه الدراسات بالطابع النقدي الانطباعي، التي لا تعد ركيزة أساسية يعتمد عليها في البحث الأدبي، إلا أنها ترشد الباحث، ويستأنس بها لصدورها من نقاد لهم باع طويل في النقد والأدب[3].

*** خطة البحث:**

قسمت البحث إلىٰ مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث:

- **التمهيد:**
  - أ- قلق الذات وهاجس الموت عند الشعراء.
  - ب- عبدالعزيز الرفاعي وقصيدة «سبعون».

---

(١) أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة فنية وموضوعية، إبراهيم محمد الشتوي.

(٢) عبدالعزيز الرفاعي أديباً، محمد مريسي الحارثي.

(٣) وأشاد بعض النقاد كمحمد مندور بالنقد الانطباعي «التأثري»، حيث بين أهمية الملاحظات الانطباعية الأولىٰ للمتلقي وأن «أساس النقد الأدبي مهما قلبنا أوجه الرأي - لا يمكن إلا أن يكون التجربة الشخصية، وكل نقد أدبي لابد أن يبدأ بالتأثر، وذلك أنك لا تستغني عن الذوق الشخصي والتجربة المباشرة لإدراك حقيقة ما إدراكا صحيحا». في الأدب والنقد، محمد مندور، (ص٩).

- **المبحث الأول: مظاهر قلق الذات من هاجس الموت في قصيدة «سبعون»:**

١ – الارتداد للزمن الماضي.

٢ – التهويل والغموض.

٣– الشكوى والألم.

٤ – الوحدة العضوية.

- **المبحث الثاني: أساليب التوافق النفسية:**

١ – استدعاء الأصحاب.

٢ – الاستعانة بالكتاب.

٣– الاستسلام والرضا.

- **المبحث الثالث: الدراسة الفنية:**

١ – الموسيقا.

٢ – الصورة الشعرية.

٣– التناص.

٤ – اللغة.

أ– الألفاظ والتراكيب.

ب– التقديم والتأخير.

- **الخاتمة.**
- **المراجع.**

* * *

تمهيد

أ- قلق الذات وهاجس الموت عند الشعراء:

لقلق الذات من هاجس الموت مظاهر عدة أقرها علماء النفس، وعبر عنها الشعراء السابقون، واستطاع الرفاعي أن يعبر عن تجربته الخاصة فيما يتعلق بذلك القلق الذي انتابه في أواخر حياته بطريقة غير مباشرة، لا سيما بعد أن اشتد به المرض. وقد أشارت الدراسات النفسية أن ٤٥٪ من الناس يبدؤون في سن السبعين وما بعدها بالخوف من الموت[١].

وربط عدد من الباحثين بين هاجس الموت وقلق الذات، والرفاعي عندما تحدث عن تعلقه بالأصحاب وبالكتاب وغيرهما كان بدافع ذلك الهاجس، وهي حيل نفسية لمواجهته. فليست القضايا المطروحة في القصيدة قد طرحت لذاتها، وإنما هناك دافع يضغط علىٰ الذات فتلتجئ لحيل نفسية تبدو في ظاهرها أنها منفصلة عن بعضها، لكن دافعها أمر واحد وهو «هاجس الموت».

وقد تطرق الشعر العربي منذ القدم إلىٰ موضوع «قلق الذات وهاجس الموت»، ويظهر ذلك بوضوح عندما يرثي الإنسان نفسه، أو عندما يتحدث عن عمره وذكرياته، وكذلك عندما يظهر عليه الكبر والشيب، فتتكرر مواضيع شكوىٰ الزمان، وسرعة انقضائه، وعظم فقد ذلك الشباب، وسرعة قدوم الشيب، وحينها يحاول الإنسان تدارك ذلك الشيب، ويعلم ألا فائدة من ستره، فليس الشيب - وحده - نذير الكبر والشيخوخة، فهناك دلالات عدة تظهر للآخرين تنبئهم بذلك، كبعد النساء وعزوفهن عنه، وضعف الجسد والوهن بشكل عام[٢].

(١) قلق الموت، أحمد عبدالخالق، (ص٨٣).

(٢) انظر: الشباب والشيب في شعر ابن المعتز، الشافعي جلال الشافعي، (ص٧٢١).

كما أكدت الدراسات النفسية أن الظروف الحضارية في المجتمع المعاصر تختلف عن المجتمع في السابق، حيث إن المجتمع المعاصر أسهم في زيادة الضغوط النفسية علىٰ الإنسان، من خلال تعقد سبل الحياة، واتسامها بالصبغة المادية «والتي لها الأثر الأكيد في تطور شخصية الفرد، وأن الحضارة الحديثة قائمة علىٰ مبدأ التنافس الذي يقود إلىٰ خلق الاضطرابات النفسية وكل مكونات القلق الأساس»[1].

ولا يعني ذلك أن كل الشعراء يقفون طويلا ويرثون أنفسهم عند عتبة الشيخوخة، فبعضهم مر دون أن يتوقف عندها وكأن الأمر لا يستحق الوقوف عنده، أو لأنه لم يعاني من دخوله في هذه المرحلة، أو لأنه تصالح معها[2]. ويرجع ذلك لعدة أمور منها شدة إحساس الشاعر بالزمن، وقلقه الدائم من عبور المراحل الزمنية المبتدئة بالطفولة حتىٰ الشيخوخة.

ب- عبدالعزيز الرفاعي وقصيدة «سبعون»:

عبد العزيز بن أحمد الرفاعي (١٩٢٤-١٩٩٣)، أديب وشاعر سعودي، عُين مستشارًا للديوان الملكي، واختير عضوًا في مجلس الشورىٰ، أحد مؤسسي مجلة عالم الكتب، وصاحب دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، التي أسهمت في نشر مراجع كثيرة في الأدب والتراث والتاريخ، صدر له أكثر من ٢٠ كتابًا[3].

كان عضواً في عدد من اللجان والمجالس العلمية والإدارية في المملكة، وله إسهامات ثقافية عدة.

وتعود له ندوة الخميسية الثقافية الأسبوعية التي تُعد من أقدم وأشهر الندوات في المملكة[4]،

(١) دراسة مقارنة في القلق من الموت وفقا لصورة الذات لدىٰ المسنين، علي عودة محمد، (ص٩).

(٢) الشيب في الشعر السعودي، محمد العيد الخطراوي، (ص١٤٥).

(٣) قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية. دارة الملك عبدالعزيز «إعداد» (١/ ٦١٢).

(٤) عبدالعزيز الرفاعي «صور ومواقف»، أحمد سالم باعطب (١/ ٨٥).

إذ أنشأها في منزله عام ١٩٥٩م، وأتاحها لجميع الأدباء والمثقفين السعوديين والعرب، نشر شعره في دواوين متفرقة، جمعت مع بقية أشعاره الأخرىٰ في ديوان واحد بعد وفاته[١].

وأكد عدد من النقاد كابن عقيل الظاهري[٢]،وعبدالله بن سليم الرشيد[٣]، وحسين بافقيه[٤] وغيرهم من الباحثين والنقاد[٥]، علىٰ أهمية قصيدة «سبعون» وأنها علامة فارقة في شعره، وفي الشعر السعودي – أيضا – وقد عدها الناقد حسين علي محمد من روائع الشعر العربي، وجعلها من بين المختارات الشعرية التي تمثل أجمل القصائد الشعرية المعاصرة[٦].

وقصيدة الرفاعي صدمت أفق توقع المتلقي «الخبير» لما امتازت به من مستوىٰ فني غير متوقع مقارنة بمستوىٰ قصائده السابقة، لكونها قيلت في مناسبة اجتماعية كرِّم من خلالها من قبل النادي الأدبي بجدة قبل وفاته[٧]، وعادة ما تكون مثل تلك القصائد تتبع لأنماط وأعراف اجتماعية درج عليها الشعراء في تلك الفترة، ومنهم الرفاعي في قصائده الاجتماعية، وهذه القصيدة من المفترض أن تكون كسابقاتها من شعر المناسبات، لكنها جاءت خلاف ذلك، حيث غلب عليها التأمل الذاتي، واتضح فيها الإتقان والتأني، من خلال طرحه لتجربة إنسانية عميقة.

---

(١) ديوان عبدالعزيز الرفاعي «شاعر الأغصان»، عائض الردادي.

(٢) فليكن من شعراء الواحدة، الظاهري، بن عقيل، أبو عبدالرحمن الظاهري. جريدة الجزيرة، العدد:٧٦٩٥.

(٣) مراجعة كتاب «أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة فنية وموضوعية. إبراهيم محمد الشتوي»، عبدالله بن سليم الرشيد.

(٤) الشاعر عبدالعزيز الرفاعي.. قفل القصيدة ومفتاحها، حسين بافقيه، جريدة القبس الكويتية، ١٧ مارس ٢٠١٧م.

(٥) قراءة في قصيدة «سبعون» لمعالي الدكتور عبد العزيز خوجة السبعون...والرحلة الإيمانية!! د. يوسف حسن العارف، جريدة الجزيرة. يوم ٨/ ٦/ ٢٠١٢م.

(٦) الأدب العربي الحديث «الرؤية والتشكيل»، حسين علي محمد، (ص٢١٠).

(٧) عبدالعزيز الرفاعي «صور ومواقف» (١/ ١٥١).

كذلك صدمت هذه القصيدة أفق توقع المتلقي لما عرف عن الشاعر من الحذر في نشر عواطفه وأشعاره طوال حياته، إذ يقول: «لقد كنت إلىٰ قريب عازما علىٰ ألا أنشر من هذه الكلمات – أي أشعاره – علىٰ شطريها شيئا، وكنت أقول: إنني في اليوم الذي أفعل فيه ذلك أو شيئا من ذلك، أكون قد فقدت السيطرة علىٰ نفسي، أو ما أخذتها به من صرامة وحزم...فقد اخترت أن أسلك دربا وسطا، لا يذهب إلىٰ حد تلك الجفوة المطلقة مع كلماتي التي أحنو عليها، ولا أكون من جهة ثانية قد شاركت الغير في ذات نفسي حيث تندس كلمات أخرىٰ أنا بها ضنين»[1]. وصدمت هذه القصيدة المتلقي مرة أخرىٰ حين جاءت مغايرة لشعره السابق والمعني بالمناسبات والمواقف الحياتية التي لا تمس ذاته بصورة مباشرة، «ولا شك أن مثل هذا من شعر المناسبات عند الرفاعي شعر وافر، وهو يطوعه لتلك المناسبات حيث يزخر بأسماء الأصحاب وبعض الأمور المشتركة والإيماءات الخاصة، وحين تكون المناسبات عامة فإن هذا الشاعر ينهل من منهل الحكمة الذي لا ينضب»[2]، وهذا خلاف ما سنراه في قصيدته «سبعون» حيث نرىٰ مصارحة الشاعر وتعبيره الجريء عن ذاته، وعدم قناعته بما قدمه من إنجازات في حياته.

وقد استعان الشاعر في هذه القصيدة بوسائل فنية متعددة كالإيحاء والتصوير، ووازن بين التصريح والتصوير، كما استطاع أن يتخلص من بعض الظواهر الأسلوبية السابقة في شعره، كظاهرة تكرار التراكيب اللفظية – مثلا – التي عدت «من أكبر الظواهر الأسلوبية عند الرفاعي، إذ تنتشر في أغلب قصائده»[3].

***

(١) مقدمة ديوان «ظلال ولا أغصان»، وقد أعيد نشره في ديوانه الذي جمعه عائض الردادي، (ص٧٦) «بتصرف».

(٢) شاعر الوجدان والفضيلة، جريدي سليم المنصوري الثبيتي، مجلة الفيصل، ع ٢٠٥، (ص١٨).

(٣) أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة فنية وموضوعية، (ص٦٤).

المبحث الأول

مظاهر قلق الذات وهاجس الموت في قصيدة «سبعون»

يعد رثاء النفس من الأغراض الأدبية التي تحوي مشاعر وأحاسيس متعددة، يغلب عليها الصدق، لبعدها عن التزلف والمجاملات، وفيها يختصر الشاعر تجربته الطويلة. والشاعر لم يعبر عن هاجس الموت مباشرة في قصيدته «سبعون» بل عبر عن آثار ذلك الهاجس من شكوى الزمان، والصراع مع الذات في تقبل إنجازاتها، وما حققته خلال مراحل العمر، والرضا بالمجد الشخصي، ومدى قناعتها بما قدمته من تضحيات من أجل ذلك كالانقطاع عن حياة اللهو، والتزود بالقليل من الملذات، والشاعر عرف بتدينه[1]، وهذا يقلل من مستوى قلق الموت في الغالب،[2] إلا أن الشاعر صور لحظات قلقه من الموت وفصّل فيها، حتى يمكن ذاته من تجاوز تلك الأزمة النفسية التي لا يمكن للإنسان أن يتجاوزها بسهولة، وتختلف تجارب الناس في ذلك، إضافة إلى أن الشاعر عانى طويلا من مرضه العضال قبل وفاته، مما زاد من حدة قلق الذات لديه بسبب هاجس الموت، لأنه يرتبط «ارتباطا جوهريا سلبيا بحالة الصحة الجسمية لدى الفرد، كما أن قلق الموت يزداد لدى من يعانون من أمراض جسيمة»[3].

وتختلف تجارب الشعراء في تطرقهم لموضوع شكوى الزمان والقلق من هاجس الموت، فهي متأثرة بعوامل عدة كالجوانب النفسية والدينية والاجتماعية وغيرها، وربما كانت هناك أمور مشتركة فيما بينهم، إلا أننا سنركز على مظاهر «قلق الموت» لدى الرفاعي في قصيدته «سبعون»:

(١) أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة فنية وموضوعية، (ص٢١٢).

(٢) قلق الموت، (ص١٧٠).

(٣) قلق الموت، (ص١١٠).

١- الارتداد للزمن الماضي.

عرف عن الشاعر نظرته الجادة إلىٰ الحياة والرغبة المستمرة في الإنجاز وتحقيق الأهداف التي كان يسعىٰ لها، مع ما في ذلك الدرب من تضحيات وانقطاع عن اللذات، لكن رفقته للكتاب وطموحه العالي جعلته يتسامىٰ فوق تلك المغريات والملذات الزائلة، ولم تكن تلك النظرة الجادة للحياة وذلك الطموح أمرا طارئا علىٰ حياته في الكبر، بل لازمته منذ الصغر «ومن اللافت للنظر أن بعض القصائد الأولىٰ التي نظمها في الستينات الهجرية كانت تحمل صورة الرفاعي وصوته الحقيقي في نظرته إلىٰ الحياة تلك النظرة التي لازمته من سني حياته الأولىٰ حتىٰ ليخيل إليك أن تلك القصائد لم تكن من نتاج زهو الصبا ونضارة الشباب»[1].

وقد عبر الشاعر مرارا في حياته عن الصعوبات التي منعته من الحصول علىٰ اللذات و«من قيد هذا الحرمان إلىٰ آفاق الحياة الرحبة الواسعة»[2]، وغلب علىٰ ذلك التعبير - قبل هذه القصيدة - الهدوء، وكتم مشاعر الحرمان، بخلاف ما في هذه القصيدة، حيث بين أن طموحه وسعيه لتحقيق أهدافه، جعله يتحمل الصعاب، ويحرم نفسه من اللذات الدنيوية الزائلة، ليرضي ذاته الطموحة، وربما كان التقدم بالعمر مع تفاقم المرض لديه أذكىٰ ذلك الصراع النفسي الداخلي بين إغراء الملهيات والصبر علىٰ طلب العلم والقراءة، مما دفع الشاعر إلىٰ أن يسترجع ماضيه، ليبحث عما يخفف به أعراض ذلك الهاجس، فنجده يركز في هذه القصيدة علىٰ الماضي في الغالب، إذ بلغت نسبة الأفعال الماضية ٧٠٪ تقريبا، يقابلها ٣٠٪ من الأفعال المضارعة، ولا نجد إشارة إلىٰ الحاضر إلا قليلا كما في الأبيات التالية:

٢٢- سبعون قد وفد الشتاء يزورني ❋ والنار قد خمدت وليس ثقاب

(١) عبدالعزيز الرفاعي أديبا، (ص١٦٦).

(٢) المرجع السابق، (ص١٦٧).

٢٣- حنت إلىٰ عبَق التراب جوانحي * لا غرو يشتاق التراب تراب

٢٤- في يقظتي أغفو، وقد يجفو الكرىٰ * جفني، فيحلم بالمنام طلاب

ومع حديث الشاعر هنا عن الحاضر، إلا أنه يشير إلىٰ الماضي مرة أخرىٰ بقوله: «حنت إلىٰ عبق التراب» وهي إشارة إلىٰ استسلام الشاعر في الزمن الحاضر وعدم الاهتمام به، وظل تركيزه منصبا علىٰ الماضي ولوم الذات والصراع معها في ما قدمته، بدافع هاجس الموت، ولا نجد اهتماما بالمستقبل - أيضا - لقسوة ذلك الماضي الذي لم يستطع نسيانه.

ونجد أن بعض الأفعال المضارعة تحمل آثار الماضي كقوله: «تتراكم» في قوله:

٣- تتراكم الأعوام فوق رؤوسنا * حتىٰ تئنَّ من الركام رقاب

فكلمة (تتراكم) تحمل آثار الماضي، فالشاعر بسبب ضغط هاجس الموت عليه وصل لمرحلة عدم الإحساس بالحاضر، وأنه يواجه الماضي فقط في غالب القصيدة، لمحاولة إقناع الذات وطمأنتها بما قدمته، لتكون مستعدة للقاء الموت، حتىٰ ترضىٰ بما حققته.

وهذا الرجوع للماضي قد يكون دافعا للمرء في تغيير حالته النفسية، وقد عرفت هذه الظاهرة بالنوستالجيا وهي «عملية يتم فيها استرجاع مشاعر عابرة ولحظات سعيدة من الذاكرة وطرد جميع اللحظات السلبية...وهي آلية دفاع يستخدمها العقل لرفع المزاج وتحسين الحالة النفسية، خاصة في حالات الملل أو الشعور بالوحدة خاصة عند كبار السن»(١)، إلا أن هذه الاستراتيجية عند الشاعر لم تعط شعورا إيجابيا بسبب ضغط هاجس الموت، الذي أسهم في تجاوز تلك اللحظات الإيجابية بسرعة، والانتقال إلىٰ ما نتج عن تلك اللحظات السعيدة من حزن وفراق لمن كان يسعد معهم، فالواقع النفسي الذي كان يحمله أقوىٰ وأصعب من أن تزيلها تلك الذكريات، وربما استدعىٰ الشاعر ذلك الماضي ليسوغ قسوة الواقع حين شتت الأيام

(١) لماذا نُحب النوستالجيا؟ سليمان الطعاني. صحيفة عمون الإلكترونية. تاريخ ١٣/ ٩/ ٢٠١٨م.

الجميلة بسرعة، وحل مكانها الضياع والخسران، ليبرر لنفسه وليقنع المتلقي بصعوبة واقعه، وهذا واقع نفسي يستدعيه المكتئب الحزين، ولذا نرىٰ الشاعر في مبحث الصورة، لا يطيل حين يصور المواقف المفرحة، ويطيل في تصوير السلبية منها.

٢- التهويل والغموض.

اعتاد الشعراء علىٰ رثاء الشباب بما فيه من قوة وقدرة علىٰ إدراك الرغبات والأمنيات، وصعوبة تقبل مرحلة الشيخوخة والضعف[١].

واستطاع الرفاعي أن يصف حالته النفسية عند قدوم مرحلة السبعين وما سببته من أهوال وأزمة عاطفية، ولم يخفف من حدة خطابه في هذه القصيدة كما كان يصنع في قصائده السابقة، بل أنه حرص أن يطلق لنفسه العنان في تصوير أحاسيسه في جميع أجزاء القصيدة وصورها، حيث نجد التهويل في وصف الصور والمعاني والأفكار، كما أن موسيقا القصيدة جاءت متوائمة مع صوت الأسىٰ الذي عبر عنه الشاعر كما سيتضح ذلك لاحقا.

ومن الأمور التي أسهمت في تهويل معاناة الشاعر وقلقه عدم وجود مقدمة في القصيدة، رغبة منه في اختصار الكلام وليعبر عن مشاعره بأسرع ما يمكن، مع أنها قصيدة تتبع لمناسبة اجتماعية، وهو ما أدهش القارئ، وخالف أفق توقعه، حيث لم يشكر الشاعر الحاضرين أو الجهة المنفذة لحفل التكريم - مثلا - وكذلك لم يمهد للقصيدة بطبيعة الحياة القاضية بتحول الإنسان من الضعف إلىٰ القوة، أو صعوبة بقاء الحال علىٰ مدىٰ الزمن، أو غير ذلك من المقدمات التي يمهد بها الشعراء عادة لقصائدهم، بل نجده قد بدأ مباشرة بغرضه الرئيس من القصيدة، حيث التعبير عن معاناته ببلوغ سن الشيخوخة، واصطياد لحظة القلق وتصويرها للمتلقي من خلال تكبير حجم تلك اللحظة وتصغيرها كما يقوم المصور حين يريد أن يجذب

(١) الشباب والشيب في شعر ابن المعتز، (ص٧٢٠).

الجمهور إلىٰ لقطته أو ما وقعت عليه عيناه.

٣- الشكوىٰ والألم.

ارتبط هاجس الموت بنقد الذات ولومها واحتدام الصراع الذاتي الداخلي، مما يؤدي ذلك إلىٰ سيطرة النظرة السلبية إلىٰ الحياة و«أن الموضوعات المتصلة بنقد الذات تعد أمورا مركزية بالنسبة للانشغال بموت الذات. كما ظهر من دراسة أخرىٰ أن ارتفاع قلق الموت يرتبط بزيادة خطر الانهيار»[1].

ويتناول الرفاعي مشكلته النفسية مع الشيخوخة، والتكيف مع المتغيرات المصاحبة لها، وكذلك مشكلة المثقف مع نظرة المجتمع له فحياته كانت ميدانا لخوض الطموح والمجد الذي كان يسعىٰ إليه، مع صعوبات وتضحيات عديدة، جعلته ملازما للجد ومترفعا عن الملذات فيقول:

٦- الجِـدُّ أغرانـي برغـم جفافـه * فظمئـت حتّـىٰ لـو أتـيح شـراب

ففوت الشاعر المرح وغلب علىٰ حياته الجد، حتىٰ ظمأ مع وجود بدائل الفرح، وقد انخدع الناس بذلك الجد، الذي ظن أنه ذو جدوىٰ وستبنىٰ عليه آمال، وإن كان هناك ارتقاء وتقدم في حياته، فهو شيء لا يذكر من وجهة نظره، إلا أنه وما تحمله نفسه من همة عالية لم ترض بما حققته من إنجازات، فطموحه كان أكبر من ذلك، مما زاد من شكواه وآلامه في الكبر حيث إن «كبار السن نتيجة حالات الضعف والعجز التي تنتابهم قد يبلورون بعض الأفكار والتصورات السلبية عن ذواتهم، وهم بذلك يرجعون الفشل والإحباط إلىٰ مصادر ذاتية داخلية وينسبون الفشل إلىٰ أنفسهم، ومن ثم يمنعهم ذلك من رؤية قدراتهم وإمكاناتهم وإنجازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في الماضي، وهذا ما يقود إلىٰ تشويه صورة الذات لديهم وبالتالي إلىٰ

(١) قلق الموت، (ص١٢٥).

الإحساس بالقلق»[1].

وعندما تطرق الشاعر إلىٰ مشكلة المثقف وما عاناه من تضحيات وعقبات، لا يستغرق في وصف تلك المعاناة ويشرح مظاهرها، وتبيان غلبة الزيف علىٰ الفن الأصيل، إذ سرعان ما يرجع ويفصل من شكوىٰ الشيخوخة، فصراع «الذات» وقلقها من هاجس الموت هو محور القصيدة، وليس المثقف ومعاناته مع المجتمع، وهذا التمحور حول ذلك الصراع المنبثق من «هاجس الموت» يجعل الشاعر يكرر تلك الشكوىٰ بصورة خاصة، إذ هي ليست شكوىٰ عابرة، فعندما يرغب بالانتقال إلىٰ موضوع آخر من مواضيع الحياة، فإنه يرجع مرة أخرىٰ لقلقه الرئيس، لعنف ذلك القلق، ولارتباطه بكافة حياة الإنسان وبجسده، ولذا لم يستطع الانشغال والتغافل عنه؛ يقول الرفاعي مصورا محاولته لمقاومة تلك السنين:

١٧- سبعون تغتال الليالي صفحتي * فينمّ عن آثارهن إهاب

١٨- إن كنتُ كابرت السنين فإنها * أقوىٰ وأعنف إذ يحين غلاب

١٩- وزعمت أني لم أفارق جدتي * فأشار يسخر باللسان حساب

ورافق تلك الشكوىٰ والألم تصوير واقع الشيخوخة اليومي، وما يؤرق حال المسن من أمور لم يعتدها في السابق ولم يستطع التأقلم معها في هذه المرحلة، فيصف نفسه قائلا:

٢٤- في يقظتي أغفو، وقد يجفو الكرىٰ * جفني، فيحلم بالمنام طلاب

وهي صورة تكررت عند الشعراء الذين وصفوا مظاهر الشيخوخة كالنوم عند اليقظة، وجفائه عند طلبه، وأثبتها علم النفس السلوكي.

وربما أحس الشاعر أن المتلقي استغرب كثرة هذه الشكاوىٰ وتوالي الصور السوداوية، فخاطبه قائلا:

---

(١) دراسة مقارنة في القلق من الموت وفقا لصورة الذات لدىٰ المسنين، (ص١٠).

٤- لا تعجبوا أن نـدَّ خاطـرُ متعـب * بعـد الـسّرىٰ وشـكىٰ إليـه رِكـاب

فالشاعر يحتج بكثرة شكوىٰ الناس من ذلك العمر الطويل، حتىٰ لا يتهم وحده بالتشاؤم والسلبية، ولذا تدل كلمة «ركاب» علىٰ عموم الناس، وليس المقصود مواهب الإنسان وعزائمه التي تضعف في نهاية العمر كما ذكر ابن عقيل[1]، فقد أراد الشاعر أن يبين حقيقة شكوىٰ الزمان والقلق من الموت، وأنه طبيعة قارة في نفس الإنسان حيث «تتراءىٰ له صورة الكارثة كلما شرع في موقف جديد لا عهد له به»[2].

٤- الوحدة العضوية.

في قصيدة «سبعون» لا نرىٰ سوىٰ حالة شعورية واحدة، مع تعدد أفكار القصيدة، حيث تنبثق الأفكار من موضوع واحد وهو «هاجس الموت» وما سببه من قلق للذات عند مواجهته، وما بذلته من حيل ودفاعات تدفع ذلك الهاجس بصورة لاشعورية، ويظهر ذلك في كل أبيات القصيدة حتىٰ في ختام القصيدة الذي عادة ما يشار فيه إلىٰ شكر من تكفل بهذه المناسبة أو غير ذلك من الأعراف الاجتماعية، لكن الشاعر لم يستطع أن يتناسىٰ هاجسه، وأشار إليه بصورة لاشعورية كما في بقية الأبيات، ومع توجيه الخطاب للسامعين إلا أنه يبتهل إلىٰ الله ويدعو للحاضرين بطول العمر، وهم بصحة وسلامة من الأمراض التي عاناها فيقول:

٣٦- سبعون عشتم مثلها بل ضعفها * والحاديـــان: سلامـــة وصـــواب

وقد كانت معضلة الشاعر وقلقه مركزة حول الزمن الذي حوىٰ سنينه السبعين، بخلاف بعض الشعراء الذين قد مزجوا في قصائدهم بين الزمن والمرأة كما في قصيدة غازي القصيبي «سيدتي السبعون» أو تمركزها حول المكان كما في قصيدة سعد مصلوح «خطوات علىٰ

(١) فليكن من شعراء الواحدة. جريدة الجزيرة، العدد:٧٦٩٥، ٨/ ٥/ ١٤١٤هـ.

(٢) دراسة مقارنة في القلق من الموت وفقا لصورة الذات لدىٰ المسنين، (ص٩).

الأعراف»[1] التي تحدثت عن تجربة مرحلة الستين من عمر الشاعر، أو الجمع بين الزمان والمكان كما قصيدة «سبعون» لسعد مصلوح حيث اكتسبت دلالات زمانية و«دلالات مكانية، فصار الانتقال من عمر إلىٰ عمر ومن عهد إلىٰ عهد ومن زمن إلىٰ زمن، انتقالا من مكان إلىٰ مكان، من نجد إلىٰ الطور...»[2] أما في قصيدة سبعون للرفاعي فقد تمركزت الدلالة الزمانية علىٰ أرجاء القصيدة، وأصبحت القصيدة مرتبطة بالعنوان الدال علىٰ الزمان ارتباطا محكما.

ونجد الحكم الواردة في القصيدة تدور كذلك حول موضوع القصيدة، حيث ضمّن الشاعر أبياته حكما غير متكلفة، تناسب طبيعة القصيدة وعمق التجربة التي عاشها، وتؤكد صدق مواقفه وتدعم حججه كما في قوله: «ولدىٰ الشدائد تعرف الأصحاب»، «ولا غرو يشتاق التراب تراب» و«السفح لا يهفو إليه عقاب».

وربما كان البيت بأكمله حكمة كقوله:

٣- تتراكم الأعوام فوق رؤوسنا * حتىٰ تئنَّ من الركام رقاب

٢١- الشيب لا يغري الحسان وإنما * شزرا إذا نظرت إليه كعاب

٣٥- طوبىٰ لمن جعل المحبّة جدولا * وسقىٰ أحبّته فطاب وطابوا

وعبر الشاعر عن مشاعره وأحاسيسه المتعلقة بهمه وهاجسه الرئيس «هاجس الموت» في أجزاء القصيدة كلها، حيث كان كل مقطع من القصيدة عبارة عن وثبة أو زفرة من زفرات ذلك الهاجس، فهي إما تعبير عن قلقه من هاجس الموت وتاريخ تكونه، أو تعبير عن طرق التعايش مع ذلك الهاجس والتصالح معه، فأجزاء القصيدة وقعت تحت سيطرة ذلك الهاجس، ونشأت هذه الوحدة العضوية من خلال القلق النفسي المنبثق من هاجس الموت الذي فرض إحساسا

(١) السمات النصِّيّة في قصيدة (سبعون) للشاعر سعد مصلوح، عبدالحميد عطية. مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، (ص٩٢).

(٢) المرجع السابق، (ص٩٣).

عاما علىٰ الشاعر حين كتب قصيدته، وربما يبدو للقراءة السطحية أن الشاعر يتحدث عن موضوعات متفرقة، إلا أنها تشكل نسيجا نفسيا واحدا، فإن النسيج البنائي لهذا «الكيان» العضوي يتميز ببساطة نسبية، كما إننا كنا بإزاء كيان وحيد الخلية...ويندرج معظم العمل الشعري الحديث «المبني» في هذا النوع البسيط»[1] وقد عبر العقاد عن هذا الكيان العضوي أو ما يسمىٰ بـ«الوحدة العضوية» بقوله: «إن القصيدة ينبغي أن تكون عملًا فنيًّا تامًّا، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها؛ فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة، أو هي كالبيت المقسم، لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها، ولا قوام لفن بغير ذلك»[2].

وهذا البناء الموحد استعان به الشاعر ليضمن سهولة وصول أفكاره ومشاعره إلىٰ الآخرين ففي «هذا البناء الشعري، يتحقق أولا، أهم المبادئ الأساسية لمفهوم القصيدة الحديثة، مبدأ الوحدة العضوية لعناصرها المكونة. أي إننا نكون هنا أمام «العمل» الشعري بالتعبير الصحيح، العمل الذي توصل إلىٰ تحديد العناصر المكونة للقوانين الداخلية لتطوره الشامل. إن اللغة والصورة، والإيقاع، والتمظهر الخارجي وسواها، حاضرة هنا لتشارك، كل منها بطريقته، في تهيئة هذا «الكل» التآلفي الحي، وهذا الكيان الشعري المتكامل»[3]، وهذا ما يخالف القصيدة المعقدة البناء، مثل: قصائد بدر السياب ومحمود درويش المطولة وغيرهما من شعراء الحداثة الذين اعتمدوا البناء المعقد في القصيدة، مع اتحاد أجزائها ووحدتها العضوية، وهذا البناء الشعري

(١) حركية الحداثة العربية، كمال خير بك، (ص٣٦٧).

(٢) الديوان في الأدب والنقد. عباس العقاد، وإبراهيم المازني، د.ط، (ص١٢٢).

(٣) حركية الحداثة العربية، (ص٣٦٧).

المبسط ملائم لطبيعة موضوع القصيدة وغرضها، والشاعر في حالته النفسية حين اقترب من الموت، لم يكن في حاجة لإخفاء مشاعره أو إبهامها، فكل ما يريد إرضاء ذاته التي تصدعت حين واجهت هاجس الموت، وبحثت بوسائل عدة عن إيجاد توازن بين الذات وما تبقىٰ من العمر، ومن عناصر ذلك التوازن قناعة الذات والمجتمع وتقديرهما لما قدمه الشاعر من تضحيات وإنجازات في حياته، وذلك التقدير لا يأتي إلا من خلال المصارحة والاستعانة ببناء مبسط يسهم في نقل مشاعره للآخرين.

وشملت الوحدة العضوية جميع أركان قصيدة (سبعون) وعناصرها، فجاءت الصور متحدة مع الجو العام للقصيدة، من خلال إيحاءاتها، وارتباط بعضها ببعض لتصور ماضي الشاعر المؤلم وحاضره «وللوحدة العضوية أثر في الصورة والأخيلة، إذ تصبح كالبنية الحية في بناء القصيدة وإذكاء الشعور فيها، ولا تكون تقليدية تتراكم علىٰ حسب ما تملي الذاكرة، أو تستوحىٰ من مظاهر خارجية لا تمت بكبير صلة إلىٰ التجربة، بل لا محيد من تعاونها جميعا لرسم الصورة العامة»[1]، ولذا سيتضح من خلال دراسة الصور الشعرية في المبحث الثالث أثر هذه الوحدة العضوية في انصهار الصور والأخيلة تحت إحساس نفسي واحد هيمن عليها، ودمجها مع أركان القصيدة الأخرىٰ.

* * *

(١) في النقد الأدبي، محمد غنيمي هلال، (ص٣٧٧).

المبحث الثاني
أساليب التوافق النفسية

عندما يزداد القلق، ويعاق الدافع النفسي لدىٰ الإنسان «يقوم صراع بين الدافع الذي يلح في طلب الإشباع وبين القوىٰ التي تعوق هذا الإشباع، فتصطنع الشخصية ما يعرف بأساليب التوافق أو حيل التوافق، حيث تلجأ إليها للتوفيق بين القوىٰ الداخلة في الصراع وإرضائها إرضاء نسبيا في صورة حل ودي compromise للصراع»[1]، والشعراء يختلفون في تلك الوسائل، فمنهم من يجعل الحب والتعلق بالمحبوبة ملاذا في تجاوز تلك الضغوطات النفسية - كما نراه عند الشعراء العذريين - مثلا، بينما يلجأ آخرون للجمادات كالأطلال كما عند الجاهليين، أو ببعض الجمادات الأخرىٰ كالجبل كما صنع ابن سنان الخفاجي، والرفاعي في هذه القصيدة لجأ لعدة أساليب واستراتيجيات لإنهاء ذلك الصراع، وهذه الأساليب ولدها اللاشعور لتخفف عنه ما أصابه، دون أن يعرض حلولا منطقية أو تقليدية يمليها العقل الواعي، وهو ما أعطىٰ تميزا لقصيدته عن قصائد أخرىٰ قدمها شعراء سابقون لم تصور ذلك الصراع النفسي بصورة دقيقة، واكتفت بالحديث العابر عن مرحلة الشيخوخة، وأنها مرحلة كبقية مراحل الإنسان لابد من المرور بها، دون الكشف عن أهوالها كما صور ذلك الرفاعي في قصيدته، ولا يعني أن الشاعر من خلال هذا التعبير الدقيق عن «هاجس الموت» أنه يعاني من مرض نفسي إذ إن «أساليب القلق كثيرة ومختلفة في الدرجة والنوع، من شخص للآخر ومن حضارة لأخرىٰ، وتعد ظاهرة مرضية وصحية - في الوقت نفسه - بحسب نتائجها وطرق تعامل الذات معها»[2]، وقد تعامل الرفاعي

(١) أصول علم النفس الحديث، فرج طه، (ص١٤٣).

(٢) تمفصلات القلق الإنساني بين النفسي والوجودي والاجتماعي، نوفل جراد، (ص١٩).

مع تلك الظاهرة بصورة واقعية وفنية، من خلال حيل وتوافقات لاشعورية تخفف عنه ما أصابه، ولتقنع الآخرين بها من خلال صدق تعبيره وجماليته، وكانت تلك الحيل اللاشعورية متوافقة مع سلوك الإنسان في مرحلة الشيخوخة، وملائمة مع واقع المثقف الأديب. وأبرز تلك التوافقات «الآليات» النفسية هي:

١- استدعاء الأصحاب.

أشارت الدراسات النفسية إلىٰ أهمية وجود الأصدقاء لكبار السن، حيث إن وجودهم عامل مهم في تخفيف شعور الوحدة عنهم[١]، وقد استدعىٰ الرفاعي أصحابه في بدء القصيدة بقوله:

١- سبعون يا صحبي وجلَّ مصاب ❋ ولدىٰ الشّدائد يُعرف الأصحاب

ففي هذا النداء يظهر الشاعر حاجته للعون والمشاركة من الآخرين حين تحل عليه المصيبة، ويؤكد موقفه وحجته بحكمة تجسد أهمية الأصدقاء في وقت المحن، ومن خلال ذلك تظهر مكانتهم وحقيقتهم، والإنسان عندما يتألم ويصاحبه الهم والقلق يزداد تأمله في نفسه وذاته، وينفصل عن العالم الخارجي، فيشعر بالوحدة والقلق[٢]، ولذا نجد الرفاعي حريصا علىٰ إيجاد أصحاب يملؤون فراغه حين تضيق به الدنيا، لاسيما أن كثيرا منهم مات، وبقي القليل، قد حرص الشاعر أن يتشبث بهم ويستند إليهم.

ولأهمية الأصدقاء في حياة الشاعر، فإنهم أول ما يتذكر من ملذات في هذه الدنيا، فبعد أن يسرد الشاعر مأساته في الأبيات (١-٤)، وما لاقاه من أهوال في مرحلة السبعين، وما رافق ذلك من غلبة الجد علىٰ حياته في البيتين الخامس والسادس، وانخداع الناس بنجاحه في الأبيات

(١) علم النفس النمو من الجنين إلىٰ الشيخوخة، (ص٦٧٩).

(٢) تمفصلات القلق الإنساني بين النفسي والوجودي والاجتماعي، (ص٢٢).

من(٧-١٠)، أراد الشاعر أن يسترجع الذكريات السعيدة التي عاشها - مع قلتها - في حياته، وكانت تلك الصحبة أولىٰ ذكرياته التي يستعيدها ويجد سعادته معها، فيقول:

١١- سبعون كم فيها تجمَّع رفقتي * وجداول الود الحميم عذاب

١٢- حتىٰ إذا وشَّىٰ الربيعُ رياضهم * ودنا القطاف وطابت الأعناب

فقد عرف عن الرفاعي علاقاته وصداقاته المتعددة، وكثيرا ما ذكرهم في قوته وشبابه، ولم ينساهم في كبره، ونجد قسما كبيرا في ديوانه خصص لهم[1]، ويتحسر الشاعر بعد ذلك علىٰ فراقهم، وإن الليالي قد خلت من الأنس بعدهم، ولم يعد هناك جدوىٰ من وجود «عوده» فيكسره لتنقطع بعدها الصلة بالفرح والبهجة:

١٣- ساق الزمان السَّرب نحو شتاته * فتفرقوا وكأنهم أغراب

١٤- وخلت من الأنس الليالي بعدهم * ومضىٰ فحطم عوده زرياب

وتزداد غربة الشاعر وتتسع لتصبح غربة اجتماعية تطال جميع المبدعين، ومنهم الرفاعي وصحبه الذين خسروا مكانتهم الثقافية، وحل مكانهم أصحاب الفن الزائف، ليفقد الشاعر أصحابه الأقربين، وكذلك مكانته الثقافية ليصبح في غربة مضاعفة:

١٥- للمبدعين الجزرُ مد رواقه * فطغىٰ علىٰ الفن الأصيل غياب

١٦- والزيف يجتاح السواحلَ مدُّه * فإذا بموج الزائفين عباب

وبعد تلك الغربة المضاعفة، يلجأ الشاعر إلىٰ صحبة من نوع آخر، وهي صحبة الكتاب، ليجعله عوضا عن صحبه الذين خسرهم، ويصرح الشاعر بقوله: «صحب الكتاب» للدلالة علىٰ أهمية الصحبة مهما كان شكلها لتعين المرء علىٰ متغيرات حياته، لاسيما حين يفقد أصحابه الحقيقيين:

(١) «ديوان عبدالعزيز الرفاعي «شاعر الأغصان»، (ص١٣٣).

٢٥- إني لـدىٰ التعريـف، ربـع مثقـف * صـحب الكتـاب، فلـم يخنـه كتـاب

٢- الاستعانة بالكتاب.

تعلق كثير من الشعراء بالطبيعة والجمادات وكانت ملاذا لهم لما عانوه من غربة نفسية وقلق، لاسيما حين يواجه الشاعر قلق الموت فابن خفاجة أراد أن يستعين بالجبل حيث الطبيعة لديه «هي بؤرة إسقاط الهم لدىٰ الشاعر، وأن وضعها ليس غاية له، بل هي مركز تعويض»[1] حيث أراد أن يطرح همومه علىٰ لسان آخر اشترك مع الشاعر في تصديه لقساوة الغربة، وغياب الأصحاب والأقران، وأحيانا يتسم ذلك الجماد بسمات بشرية، كتجربة النجاح والفشل فالجبل الجماد - مثلا - «تأنسن...وقال ما يود الشاعر قوله: لقد ربحت الخسران في عمري الطويل»[2].

والكتاب عند الرفاعي هو الجبل عند ابن خفاجة، فكلا الشاعرين استند في شيخوخته لجماد، لتجاوز الشعور بالغربة، لكن المعالجة والأسلوب مختلفان، وقد بدأ الشاعر حديثه عن الكتاب بعد أن بلغ الذروة في معاناته النفسية كما نرىٰ ذلك في الأبيات من (٢٥-٢٨) فوصف الشاعر ملازمته للكتاب طوال حياته، حيث أسره منذ طفولته، وأصبح منتم إليه، وأصبحت تلك الذكريات مع الكتاب هي سلوته مع مشقة القراءة وضياع كثير من الأحلام والملهيات بسببها، فعوض الكتاب عن ذلك، وسلىٰ النفس وفاض عليها بلذة المعرفة، وينقل الرفاعي واقع المثقفين والقراء، فيصف شعوره عندما ينصرف طالب العلم، وصاحب الكتاب عن ملذات الحياة، ويظل عاكفا علىٰ الكتب، وما يجده من لذة لا تقاربها اللذات الدنيوية الأخرىٰ، وهذا الشعور الجميل، جعل الشاعر مفتخرا بالكتاب حتىٰ تماهي به وانتسب إليه.

والشاعر أثبت محبته للكتاب لكنه ينكص ثانية إلىٰ الوراء بسبب ضغط هاجس الموت عليه، فلم تكن حيلة الاستعانة بالكتاب مقنعة للذات أو للآخرين قناعة تامة من وجهة نظر

(١) خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي «قصيدة الجبل نموذجا»، (ص١٩٩٠).

(٢) المرجع السابق، (ص١٩٩٢).

الشاعر، فيلجأ إلىٰ التسويغ وهي «عملية لا شعورية يلجأ إليها الفرد أو (الأنا) ليبرر ويسوغ سلوك الشخصية أو ميولها أو دوافعها التي لا تلقىٰ قبولا من المجتمع أو الغير أو الأنا الأعلىٰ، بحيث يقدم الأنا - في هذه الحالة - أسبابا وجيهة يقتنع الشخص علىٰ المستوىٰ الشعوري بها، ويحاول إقناع الغير - أيضا - حتىٰ لا يلام علىٰ ذلك،»[1] ولذا فالشاعر يلوم نفسه مرة أخرىٰ، بقوله:

٢٩- يا لائمي في العمر كيف أضعته * لا الجد ساد، ولا الهوىٰ غلاَّب

٣٠- ما بين بين، فما صعدت إلىٰ الذُّرا * أو كان لي في القانعين مآب

ويأتي هذا اللوم لعدم وصوله إلىٰ مبتغاه من المجد التليد الذي كان يسعىٰ إليه، لا سيما أن المثقف المعاصر يتحسّر «اليوم. يلعن التلفزيون والإنترنت، يحمّلهما المسؤولية كاملة. يحزن علىٰ ما كانه في ماضيه القريب. يتذكر، وبحنين موجع. الصورة القديمة التي بنىٰ من أجلها دوره كانت مشرقة. وهو لا يستطيع أن ينساها: كان مرموقًا...الآن، الوضع تغير. تراجع المثقف إلىٰ مصاف المواطن البسيط...فتراه جالسًا في زاويته، يسخر، ويندب، وينظر إلىٰ المهانة بصفتها نهاية تاريخه ودوره، ومعها نهاية السياسة والتاريخ»[2].

وغياب دور المثقف وتصاعد أدوار اجتماعية أخرىٰ في المسرح والسينما وغيرهما ظاهرة عالمية كما في المجتمع الأوربي وغيره[3]، وغياب دور الأدباء - تحديدا - نتيجة لعدم ظهور آثارهم وجهودهم إلا بعد موتهم في الغالب، بخلاف المفكرين - مثلا - حيث ذهب بول ريكور[4]، وغيره من المفكرين الغربيين أن جهود الأدباء تظهر في الغالب بعد موت الأديب، وهذا ما يشكل

(١) أصول علم النفس الحديث، (ص١٤٨).

(٢) حسرة المثقف علىٰ انحساره، دلال البزري. مجلة الفيصل، (ص١٦٨) «بتصرف»

(٣) سوسيولوجيا المثقفين، جيرار ليكلرك، (ص٩٤).

(٤) المرجع السابق، (ص٩٩).

ضغطا عليه حين يكتب شعرا أو أدبا كالرفاعي وغيره، فلا يرىٰ تقديرا لأدبه في حياته، خلافا لكتاب آخرين كالإعلاميين الذين يحصلون علىٰ تقدير عال من المجتمع أثناء حياتهم.

وهناك عوامل متعددة ومشتركة مع شعراء آخرين، أسهمت في ارتفاع وتيرة الألم والحسرة من تجاهل مكانة الشاعر، وعدم الرضا الداخلي بما قدمه في حياته، ورثاء نفسه بعد ذلك، فكل الشعراء الذين رثوا أنفسهم اتسموا بعدة سمات منها: «التقدير العالي للذات، والشعور بالغبن المجتمعي وعدم الحصول علىٰ التقدير المستحق، والرغبة بخلق شعور بفداحة الخسارة لدىٰ الآخرين عبر رسم صورة مثالية للذات...»[1]، وكذلك السعي إلىٰ تحقيق المجد: وهو الأساس الفكري الذي اشتركت به قصائد من رثوا أنفسهم[2].

وهذا الرفض وعدم الرضا بما قدمه الشاعر له أسباب تتعلق - أيضا - ببعض السمات الاجتماعية والمعيشية حيث إن من كابد وتعب في مستهل حياته يجد صعوبة التكيف في شيخوخته[3].

ومما زاد من معاناة الرفاعي ما لاقاه الأدباء في جيله من تهميش أدبي وثقافي وقلة اهتمام، الذين عدوا من أبناء الجيل الثالث الذي لم يلق عناية واهتماما من قبل المجتمع الثقافي كما لاقاه الجيل الأول من الأدباء كأمثال محمد سرور الصبان والجيل الثاني كأمثال حسين سرحان من أدباء المملكة[4].

ومع ذلك لا نستطيع أن نجعل ذلك التهميش الثقافي هو السبب الرئيس في معاناة الشاعر وقلقه في هذه القصيدة، فقد كانت للجوانب الأخرىٰ دورها، وهذا ما أعطىٰ القصيدة جانبا إنسانيا عاما، فهي لا تخص الشاعر أو المثقف فحسب، بل تحاكي تجربة قلق الذات وهاجس الموت

(١) رثاء النفس بين بكاء ابن الريب وتأبين القصيبي، هيلة العساف، (ص٩٠).

(٢) المرجع السابق، (ص٩٧).

(٣) المدخل إلىٰ علم نفس النمو، عباس عوض، (ص١٧٠).

(٤) من شعراء الظل محمد سراج خراز، حسين بافقيه، جريدة الوطن، الجمعة ١٤يونيو ٢٠١٩م.

ببعدها الإنساني العام.

٣- الاستسلام والرضا.

«ويصاحب قلق الموت شعور بالطمأنينة لحصول السكون والانقطاع، وتتحقق هذه الطمأنينة عند الموت علىٰ نحو دنيوي وأخروي، فالدنيوي حيث إننا ما دمنا أحياء فالموت ليس شيئا، وإذا متنا فلن نكون بعد شيئا، فهو لا يعنينا بشيء، وأخروي وهو القائم علىٰ فكرة الآخرة»[1]، والشاعر بعد أن أكثر من الشكوىٰ جنح إلىٰ الاستسلام والرضا، والرغبة بوضع حد لهواجسه وإنهاء الصراع مع الذات، فيقول:

٢٣- حنت إلىٰ عبَق التراب جوانحي ❋ لا غرو يشتاق التراب تراب

وهذا الحنين إلىٰ الأرض عند الرفاعي قد استند إلىٰ قاعدة إنسانية وفلسفية عامة، تتمحور في حب الإنسان لوطنه وأصله، وأصل الإنسان التراب كما نص علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] مما جعل الشاعر يحن لمكان نشأته، ليهنأ بالراحة ويجتاز عقبة القلق، ويحول ذلك القلق إلىٰ شوق «ويرىٰ علماء النفس أن الإحساس بقرب النهاية يتم علىٰ مراحل هي: «الإنكار ورفض الاعتراف بحقيقة أن مرضه قاتل. يأتي بعد الإنكار الغضب الشديد والشعور بعدم العدالة، ثم الاكتئاب كمحاولة للتعبير عن الحزن والأسىٰ للنفس، ثم تقبل هادئ للموت كحقيقة قادمة، والتقبل الهادئ لا يعني السعادة بالموت إنه يعني ببساطة أنه لا فائدة من المقاومة وأن الوقت آن للراحة الدائمة»[2].

والشاعر لم يقتنع بهذا الاستسلام الفلسفي بدليل ما جاء بعده من رجوع للشكوىٰ في قوله:

٢٤- في يقظتي أغفو، وقد يجفو الكرىٰ ❋ جفني، فيحلم بالمنام طلاب

(١) تمفصلات القلق الإنساني بين النفسي والوجودي والاجتماعي، (ص٢١).

(٢) تراجيديا الموت في الشعر، عبدالناصر هلال، (ص١١٣).

والاستسلام والرضىٰ الحقيقي قد جاء في نهاية القصيدة، حين صرح باستسلامه، والرضا والقناعة بما أعطاه الله له:

٣٣- إني أخذت من الليالي صفوها * نزراً وقلت: النزر منك رضاب

٣٤- وحمدت مَن أسْدَىٰ الرِّضاب فطالما * لم تحْظَ منه بقطرة أكواب

*** صراع الذات في القصيدة:**

عانىٰ الشاعر من هاجس الموت صراعا كبيرا، و«القلق من الموت، أعنف أنواع القلق في حياة الإنسان حيث لا خيارات متعددة فيه»[1]، وهذا الهاجس يزداد ويضغط علىٰ الذات وتتولد صراعات عدة تسعىٰ الذات لتهدئتها من خلال الرضا بما قدمه الإنسان، وما امتلكه من تقدير وإنجاز من قبل المجتمع، حتىٰ تقنع بما حققته من إشباع لرغباتها الإنسانية المتعددة، والمبتدئة من إشباع الحاجات البيولوجية حتىٰ تصل إلىٰ تحقيق الذات كما نص عليها هرم ماسلو الذي بين أن الفرد إذا تمكن «من إشباع رغباته الأساسية، فإنه ينتقل بعد ذلك لتحقيق أمنه، ثم علاقاته الاجتماعية، ثم كل ما يتعلق بآماله ورغباته المتقدمة، وحتىٰ يصل في النهاية إلىٰ تحقيق ذاته وأهدافه...وتبقىٰ مع المسن الحاجة إلىٰ تقدير الذات واحترام الزملاء ومن الأهمية أن يكون له غرض في الحياة»[2].

ولذا يختلف الشعراء في مدىٰ اقتناعهم بما حققوه من إنجاز، فهو أمر نفسي له عدة عوامل في تكوينه «فإذا كان مفهوم الذات إيجابياً كانت الصحة النفسية لديه إيجابية، وعليه فالصحة النفسية تكيف مستمر وليس حالة ثابتة»[3]، وربما كان للآخرين ممن يحيطون بالشاعر دور في تأجيج ذلك الصراع النفسي، حيث صرح الرفاعي بقوله:

(١) تمفصلات القلق الإنساني بين النفسي والوجودي والاجتماعي، (ص٢١).

(٢) علم النفس النمو من الجنين إلىٰ الشيخوخة، (ص٦٦٦).

(٣) العلاقة بالزمن والصحة النفسية، مرسلينا شعبان، نفسانيات المجلة العربية للعلوم النفسية، العدد: ٥٧، (ص٦).

٧- سبعـــون ظـــنّ أحبّتـــي أنَّـــي بـــها * أعلـــي القبـــاب ومـــا هنـــاك قبـــاب

ويبدو استغراب الشاعر من انبهار الآخرين بإنجازاته التي ربما بولغ بها، ولم يقتنع بها الشاعر بتاتا، فقد نفىٰ أي إنجاز حققه، مع حسن ظن من أحبوه، ويرىٰ أنه بريء بتهمة الخداع والتظاهر بأي شكل من أشكال النجاح، وأن الحظ وحده من أوهم الناس أنه شخص ناجح، فنراه يقول:

٨- أنـا مـا خـــدعتهمُ ولكـــن غرّهـــم * حظـــي لـــديهم والحظـــوظ عجـــاب

٩- أنا من بنيت علىٰ الخيال قواعدي * فتـــصدّعت وانهـــارت الأطنـــاب

١٠- حقـًا رفعت علىٰ السّراب دعائمي * لا عُجْـــب إن ذابـــت وظـــل ســـراب

فالشاعر انتابه شعور بالذنب من خلال اعتقاده بأنه قد خدع الناس بإنجازات وهمية، هو بريء منها، ولينقل للمتلقي الحالة النفسية بكافة تفاصيلها، منوعا في الصورة الشعرية مع أن المعنىٰ نفسه في البيتين التاسع والعاشر، لكن الشاعر أراد تأكيد فكرته، وتعميق مشاعره لدىٰ المتلقي، وكأن الشاعر حين يطلق فكرته، يشعر بأنه لم يخرج كل ما في قلبه من أحاسيس، فيعيدها بطريقة أخرىٰ، وبصورة فنية مغايرة، مؤكدا عمق ندمه علىٰ تجاربه التي قضاها سابقا.

ويقرر الشاعر أنه ظل متذبذبا بين النجاح والفشل، ومستسلما لأقوال اللائمين له، وينسحب بعد ذلك من محاجة خصومه، ويعترف بأنه قد انهزم في معركة الحياة، ولم يحقق مجده الخاص الذي كان يسعىٰ إليه، فنراه يقول:

٣١- ركنتْ إلىٰ السفح القريب مطامعي * والـسفـــح لا يهفـــو إليـه عُقـــاب

٣٢- لك أن تلوم فما جحدتُ مسيرتي * قامـت علـىٰ الـدرب الطويـل صـعاب

فالشاعر عبر عن صراع الذات وواقعه بقوله: «والسفح لا يهفو إليه عقاب» وهذه الصورة تبين أن ذات الشاعر في تلك اللحظة لم تقتنع بما وصلت إليه مطامعه، وهذا ما يقلقه وهو يواجه الموت.

وبعدها يذعن الشاعر في نهاية المطاف للموت، فلقد انتهىٰ صراع الحياة «ويخبر الشخص الراحة النهائية قبل قيامه برحلة طويلة أخرىٰ، وقبل هذه العملية يشعر المرء بالتعب والضعف، وغالبا ما تنتابه حالات النوم، وتمر خبرة الموت أحيانا علىٰ بعض الأفراد في أمان وسلام، وقد يطلب الفرد المشرف علىٰ الموت بعض الأشخاص الذين يود رؤيتهم قبل موته، وبالتالي يبدأ في فصل ذاته عن الأمور الدنيوية ويطلب السكينة والهدوء، ويبدو أن الفرد يبدأ في فصل ذاته عن هذا العالم المحيط به حتىٰ يجعل عملية الموت سهلة في وقعها عليه»[1] ومثل ذلك كان موقف الرفاعي من الموت في آخر القصيدة:

٣٣- إني أخــذت من الليالي صفوها * نــزراً وقلــت: النــزر منــك رضــاب

٣٤- وحمدت مَن أسْدَىٰ الرِّضاب فطالما * لــم تحْــظَ منـــه بقطــرة أكـــواب

***

(١) علم النفس النمو من الجنين إلىٰ الشيخوخة. ص٦٨٨

المبحث الثالث
الدراسة الفنية

١- الموسيقا.

جاءت هذه القصيدة علىٰ وزن البحر الكامل، الذي يصلح «لكل أنواع الشعر...وهو أقرب إلىٰ الشدة منه إلىٰ الرقة»[١]، ولذا فهو مناسب لمأساة الشاعر ومشاعره الحزينة النابعة من شدة وقع السبعين عليه، و«يمتاز بجرس واضح يتولد من كثرة حركاته المتلاحقة التي تكاد تنحو به نحو الرتابة لولا كثرة ما يدخلها من إضمار، فتصبح «متَفاعلن»: «مستفعلن»»[٢]، فالكامل يمتلك قدرة إيقاعية وموسيقية مميزة، استغلها الشاعر في قصيدته، وأدخل علىٰ تفاعيلها زحافات عدة، ليبعد الرتابة الموسيقية المتولدة من توالي التفعيلات، شملت أبيات القصيدة كلها، بمعدل ثلاث زحافات تقريبا في البيت الواحد، وربما وصلت لأربع زحافات، ولم تقتصر هذه الزحافات علىٰ حشو القصيدة فقط، بل طالت العروض والأضرب، حيث تحولت متَفاعلن في العروض إلىٰ مستفعلن، كما في قوله:

٧- سبعون ظن أحبتي أني بها * أعلي القباب وما هناك قباب
مستفعلن متَفاعلن مستفعلن * مستفعلن متَفاعلن فعلاتن

وكذلك تحولت «فعلاتن» إلىٰ «مفعولن» في الضرب، وهذا جائز - أيضا -[٣] كما في هذا البيت:

٨- أنا من بنيت علىٰ الخيال قواعدي * فتصدعت وانهارت الأطناب
متَفاعلن متَفاعلن متَفاعلن * متَفاعلن مستفعلن مفعولن

(١) المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، إميل بديع يعقوب، ص١١٤
(٢) المرجع السابق، نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص١١٣

فقد ناسب البحر الكامل تجربة الشاعر، وجذب السامع لجرسه المألوف والمناسب لحالة الشاعر بداية، وجاءت الزحافات لتنوع الموسيقا، ولتبعد الرتابة بعد ذلك.

ولعل الملمح الموسيقي الأبرز الذي اعتمده الشاعر لإيصال تجربته هي استعانته بحروف المد في سائر القصيدة، إذ لا نجد بيتا في القصيدة إلا واحتوىٰ علىٰ أكثر من خمسة حروف مد في الغالب، وقد استعان الشاعر منذ القدم بتلك الحروف وأكثر منها لما لهذه المدود «من صلة نفسية به، إذ أنها تمنحه راحة لقلبه بمد نَفَسه، وراحة لأذنه بطيب النغم، ولأنها تعطي الشاعر من تجاوب النظم ما لا يعطيه توالي الحروف والحركات... وهي تناسب آلام الشاعر وأحزانه التي يشعر بها...ولهذه الحروف فيما نرىٰ دلالة فكرية معنوية إضافة إلىٰ القيمة الموسيقية»[1].

وتمتاز حروف المد بخاصية صوتية تختلف عن بقية الحروف التي تعاق أصواتها في جهاز النطق كالشفتين والأسنان، فتتسم أصوات حروف المد بمرور «الهواء في أثناء أدائها إلىٰ خارج الفم مرورا حرا من غير أن يحدث احتكاك أو إعاقة»[2]، وهذا يسمح لها أن «تحمل طاقة أعلىٰ بكثير مما تحمل الصوامت التي تفقد كثيرا من طاقتها في الاحتكاك فساعدتها قوة الطاقة هذه علىٰ أن تكون أصواتا ذات قدرة عالية في الأسماع. وقد أدىٰ عدم الاحتكاك أيضا إلىٰ أن تكون أصوات المد أصواتا موسيقية منتظمة، قابلة للقياس، خالية من الضوضاء لها القدرة علىٰ الاستمرار وهي بذلك تختلف عن الصوامت»[3].

وغياب حروف المد يسهم في سرعة القصيدة[4]، وحضورها يسهم في إبطائها، وهذا مناسب

(١) القيمة الموسيقية للتكرار في شعر الصاحب بن عباد، فرحان القضاة. مجلة المجمع اللغوي الأردني، العدد:٥٨، (ص١٣٤).

(٢) في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، غالب المطلبي، (ص٢٧).

(٣) انظر: المرجع السابق، (ص٢٤-٢٥).

(٤) دير الملاك «دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر»، محسن أطيمش، (ص٣٢٥).

لخطاب من يتحدث عن مرحلة الشيخوخة وما يناسبها من الحكمة والوقار، وذلك يسهل علىٰ الشاعر أن يعبر عن نفسه، وأن يطرح مشاعره الحزينة، وتنبع الأهمية الموسيقية لهذه الحروف من كونها هي الحروف «التي تفسح المجال لتنوع النغمة الموسيقية للكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة لسعة إمكاناتها الصوتية ومرونتها، فأصوات المد إذن أصوات موسيقية منتظمة قابلة للقياس، ولها القدرة علىٰ الاستمرار، ويرجع ذلك إلىٰ أن الهواء عند مروره أثناء النطق بها يمر حرا من غير أن يكون هناك احتكاك أو إعاقة»(١)، ويتجلىٰ ذلك حين يتحدث الشاعر عن معاني حملت دلالات لها تأثيرات حزينة كبيرة الوطء عليه، وحروف المد تسهل عليه نقلها إلىٰ المتلقي، وكذلك تساعده في التنفيس عن مشاعره من خلال تمديد تلك الحروف كيفما شاء، كما في هذا البيت:

١٧- سبعون تغتال الليالي صفحتي ❋ فينمّ عن آثارهن إهاب

فكلمة «سبعون» يستطيع الشاعر من خلال حرف المد «الواو» الإطالة الصوتية المعينة علىٰ توضيح طول هذه السبعين مع قسوتها، لتغتاله تلك الليالي، ويأتي حرف الألف في كلمة «تغتال» مبينا هول فعل الاغتيال من خلال مده، ثم تأتي الليالي بحرفي مد لتؤكد طول تلك السبعين، ولتزيد حجم التجربة النفسية المتعبة عبر السنين، وكذلك جاءت بقية حروف المد، عاكسة واقع التجربة الشعرية، وساهمت في طرح همومه من خلال الزفير الصوتي المنبثق من أعماق الشعور.

٢- الصورة الشعرية.

غلب علىٰ عناصر القصيدة الجانب الحزين النابع من قلق ذات الشاعر حين واجهت هاجس الموت فجاءت الألفاظ والمعاني والتراكيب تبعا لذلك القلق المهيمن كما بينت ذلك

(١) القيمة الموسيقية للتكرار في شعر الصاحب بن عباد.ص١٣٣

سابقا، وانصهرت الصور الشعرية أيضا - بتلك العناصر، لتكوِّن وحدة عضوية ملتحمة مع بعضها من خلال خيال الشاعر، والخيال كما يذكر كولردج «هو القوة التي بواسطتها تستطيع صورة معينة أو إحساس واحد أن يهيمن علىٰ عدة صور أو أحاسيس (في القصيدة) فيحقق الوحدة فيما بينها بطريقة أشبه بالصهر»(١)، وتظهر الصورة المركبة حزينة في غالبها، مستمدة من التراث وكذلك من البيئة المحيطة به، ومترابطة فيما بينها، فحين يتذكر الشاعر عهد الأحبة والصحبة، يصور تلك الأيام برياض تسقيها جداول عذبة، ويزينها الربيع، وتدنىٰ القطاف، وتجنىٰ الأعناب لكنه يردف تلك الصورة المشرقة، بصورة ذلك السرب الذي يشتت ما حواه الربيع، ولا يكتفي الشاعر بصورة واحدة لإزالة تلك الصورة المشرقة من ذهن المتلقي، بل يضفي عليها عدة صور حتىٰ يقرر ما يريده من رسم معاناته، وتنسىٰ بعدها تلك الصور المشرقة، فاستدعىٰ من التراث شخصية زرياب الذي جعل من عوده رمزا للأنس والوصال، ثم يكسر من قبل زرياب نفسه، ليبدأ الشاعر بعدها باستدعاء عدة صور حزينة، تصور معاناته ومعاناة المبدعين من الأدباء والمثقفين، ثم ينتقل لتصوير حالته النفسية الخاصة، وما واجهه من صعوبات من خلال ازدراء الحسان له، وكذلك من خلال ما واجهه من ضعف جسده بسبب شيخوخته، وتزداد صوره النفسية قتامة في البيت التالي:

٢٢- سبعون قد وفد الشتاء يزورني * والنار قد خمدت وليس ثقاب

حيث بدأ الإحساس بالرحيل، الذي يسبقه شتاء لا نار فيه، ولا يوجد فيه حتىٰ ثقاب ليقطع الشاعر علىٰ نفسه بوجود بارقة أمل، ويبدأ الاستسلام لوطأة السبعين والاستعداد للموت، من خلال الحنين إلىٰ التراب، وبعدها يصف مرحلة الشيخوخة وصفا دقيقا بقوله:

٢٤- في يقظتي أغفو، وقد يجفو الكرىٰ * جفني، فيحلم بالمنام طلاب

(١) كولردج، محمد مصطفىٰ بدوي، (ص١٥٨).

ويحاول الشاعر أن يجعل الكتاب بديلا مشرقا عن الصور الحزينة السابقة في قوله:

٢٦- هو في دمي عشق الطفولة والصبا * فهو الهوىٰ، واللحن، والأحباب

فيجعله بمنزلة الهوىٰ ليعوض عما فقده من إعراض الحسان عنه لكبر سنه، ويجعله اللحن المفضل ليكون عوضا عن عود زرياب المكسور، ويجعل الكتاب بديلا عما فقده من أحباب.

فالشاعر أتىٰ بصورة لا شعورية عندما تحدث عن مكانة الكتاب، وهو تعويض نفسي عما خسره سابقا، فالصور الشعرية متصارعة في مخيلة الشاعر، ومع انتقاله من مقطع إلىٰ آخر فإن اللاوعي قد ربط بين تلك الصور، بروابط نفسية وإيحائية، حيث تعلقت الصور في غالبها بما سبقها، وارتبطت بموضوع هاجس الموت الذي صبغ تلك الصور بطابع السوداوية والانهزام، واتخذت صوره شكل البناء التركيبي حيث لا نجد صورا مفردة-في الغالب-مع أن غالبية الصور في قصائد الشاعر السابقة كانت مفردة «ولا يعني هذا انعدام الصور المركبة التي تتآزر فيها مجموعة من الصور المفردة لتشكل في مجموعها وتراكمها الصورة العامة للقصيدة...وهذا الذي أتاح للغته الشعرية أن تبدو واضحة بعيدة عن الغموض...»[1].

وتظهر الصور الفنية في هذه القصيدة معبرة عن هذا الهاجس الكامن في النفس البشرية، الذي يلازم الإنسان في مراحله الزمنية، لكنها تشتد وتظهر بصورة واضحة في أواخر عمره، حيث تحاكي تلك الصور تراكم هاجس الموت علىٰ الإنسان، كما في قوله:

٣- تتراكم الأعوام فوق رؤوسنا * حتىٰ تئنَّ من الركام رقاب

وقوله:

٢- سبعون يا للهول أيّة حقبة * طالت، وران علىٰ الرحيق الصّاب

والرَّيْنُ: الصدأ الذي يعلو السيف. ورَانَ الذَّنْبُ علىٰ قلبه يَرِينُ رَيْنًا ورُيُونًا: غلب عليه

(١) عبدالعزيز الرفاعي أديبا، (ص١٩٠).

وغطاه، وقد سئل النبي صلىٰ الله عليه وسلم، عن قوله تعالىٰ: كلا بل رانَ علىٰ قلوبهم، قال: هو العبد يذنب الذنب فَتُنْكَتُ في قلبه نُكَتَةٌ سوداءُ، فإن تاب منها صُقِلَ قلبه، وإن عاد نُكِتت أُخرىٰ حتىٰ يسودّ القلب، فذلك الرَّيْنُ»[1]؛ ولهذا اختار الشاعر كلمة «ران» لدلالتها علىٰ تراكم السنين علىٰ الشاعر خلال زمن طويل، ولم يختر بدلا منها كلمات أخرىٰ كحَلَّ وغيرها لقرب تلك الكلمة من قصده، ولتعبيرها عن مشاعره الحزينة المتعبة والمتراكمة ببطء عليه جراء تلك السنين.

واستدعاء الصورة السلبية أمر شائع عند كبار الناس بصورة عامة حيث إن الإحساس باليأس «يقيد الشخص المسن الذي لا يجد في ماضيه معنىٰ أو رضىٰ ويرىٰ حياته كشيء ضائع، وبالتالي يظهر القلق المخيف من الموت»[2]، ونجد هذا الأمر يشتد عند الشعراء ومنهم الرفاعي، لامتيازهم عن غيرهم بشدة الإحساس بالزمن، والقدرة علىٰ استدعاء تفاصيل الماضي، ومشاركة الخيال في تصويره.

وقد حرص الشاعر أن يجعل شكواه شكوىٰ الناس عامة بقوله:

٣- تتراكم الأعوام فوق رؤوسنا ❋ حتىٰ تئنَّ من الركام رقاب

إنه يشرك المخاطب في المصاب، وظاهرة «توالي السنين» مشكلة الإنسان بصورة عامة بدلالة الضمير المتصل «نا»، والشاعر أراد أن يعمم الصورة السوداوية علىٰ كل من دخل في تلك المرحلة، ولفظة «تتراكم» تبين حجم المعاناة وأنها ليست بالأمر الهين الذي يمكن التخلص منه لكبر حجمها، ولقدم تكونها، ولو جاء بكلمة أخرىٰ مثل: «تتوالىٰ» لما دلت علىٰ ما يقصده الشاعر من بقاء أثر ورود تلك السنين عليه، وتفاقم آثارها عليه الواحدة تلو الأخرىٰ.

(١) لسان العرب، محمد ابن منظور، (ص١٩٣).

(٢) دراسة مقارنة في القلق من الموت وفقا لصورة الذات لدىٰ المسنين، (ص٩).

ومع أن القلق سيطر علىٰ أرجاء القصيدة إلا أن علو ذات الشاعر وتساميه نحو المعالي جعلته يغرىٰ بالجد الذي لا يغري الناس عادة لجفافه وألمه، فنراه يقول:

٦- الجِـدُّ أغرانـي برغـم جفافـه ❋ فظمئـت حتّـىٰ لـو أتـيح شـراب

فذات الشاعر ألفت مثل هذه الأحمال والصعوبات، واستسهلتها حتىٰ أصبحت عادة له، ونراه يفضل الظمأ حين يدعىٰ للشراب لانشغاله بالجد والتلذذ به.

لقد تحققت الوحدة العضوية بتآزر تلك الصور النفسية المعبرة عن قلق الذات وصراعها المرير مع هاجس الموت الذي ظهر في كل أرجاء القصيدة من خلال ألفاظها ومعانيها وموسيقاها وصورها، وارتبطت أجزاؤها فلا يمكن بعد ذلك فصل جزء منها عن الآخر.

٣- التناص.

أ- التناص الخارجي:

اتسم التكوين المعرفي للرفاعي بالطابع التراثي[1]، وهذا الطابع يظهر بشكل واضح في هذه القصيدة، من خلال تناص هذه القصيدة بالقرآن الكريم والقصائد الشعرية السابقة، وهو تناص خارجي يعنىٰ بعلاقة «النص الأدبي اللاحق بالنص أو بالنصوص أو بالمقاطع من النصوص السابقة أو المتزامنة، غير المنتمية لنصوص المبدع نفسه، أي علاقته بخارطة الثقافة العامة، سواء أكانت تلك العلاقات ظاهرة أم خفية مستترة أم شبه مستترة»[2].

ومن تأثر الشاعر بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه حمده لله سبحانه وتعالىٰ علىٰ قضائه وقدره بقوله في البيت الرابع والثلاثين: «وحمدت من أسدىٰ الرضاب» وكذلك قوله في البيت الثالث والعشرين: «لا غرو يشتاق التراب تراب» أخذ هذا المعنىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

(١) عبدالعزيز الرفاعي أديباً، (ص٦٥).

(٢) التناص وتداخل النصوص المفهوم والمنهج دراسة في شعر المتنبي، أحمد حمدي، (ص٢٧).

ومن المصادر الخارجية الأخرىٰ التي تعالقت مع هذه القصيدة، تجارب الشعراء الذين واجهوا هاجس الموت، حيث استقىٰ الرفاعي أساليب عدة لمواجهة ذلك الهاجس ممن سبقه، ومن ذلك استدعاء الأصحاب، فكثيرا ما استدعىٰ الشعراء قديما وحديثا الأصدقاء، حين تلم بهم الملمات، وتضيق بهم الدنيا، ولا يجدون من يستمع إليهم سوىٰ أصحابهم المخلصين، فهذا بشار بن برد يؤكد علىٰ أهمية بث الشكوىٰ لصحبه بقوله:

فلا بد من شكوىٰ إلىٰ ذي مروءة ❋ يعزيك، أو يسليك، أو يتوجع»[1]

وتأتي أهمية تذكر الأصحاب لما يعانيه الشاعر من وحدة حين يواجه الموت، وأنه أصبح غريبا مفردا، ومما يزيد الأمر سوءا علىٰ نفسه شعوره «بأنه يموت وحده وأن العالم مستمر من بعده، دون أن يحفل بغيابه في كثير أو قليل. أليس في الموت وحدة أليمة تزيد من هوله وتجعل منه واقعة فردية أليمة؟!»[2]، ولذا يستند الشاعر إلىٰ أصحابه لا شعوريا رغبة منه في تجاوز ذلك الشعور، الذي يزداد شدة مع مرور الوقت.

ونجد أن تجربة ابن خفاجة – مثلا – في قصيدته «وصف الجبل» مقاربة لتجربة الرفاعي في قصيدته «سبعون» فكلاهما واجه هاجس الموت، وتشابهت العوامل المسهمة في ارتفاع قلق الذات المنبثق من ذلك الهاجس، وذلك راجع إلىٰ أن «عمق الإحساس بالذات والشعور القوي بالشخصية يسهم في ارتفاع منسوب القلق لديه، فكلما كان الشعور بالشخصية أقوىٰ وأوضح كان الإنسان أقدر علىٰ إدراك الموت»[3].

---

(١) الشيب في الشعر السعودي، (ص١٥٣).

(٢) دلالة الموت في شعر أمل دنقل، رمضان رضائي.مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية العدد:٣٣، (ص٢١١).

(٣) خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي راشد عيسىٰ ونضال الشمالي، مجلة جامعة النجاح، العدد:٨، (ص١٩٨٥).

وكان كلا الشاعرين يملكان عقيدة تجعلهما يتقبلان نهاية ما بعد الموت، حيث الحياة الأبدية التي أعدها الله لعباده، فمن خلال قصائد الرفاعي السابقة يظهر إيمانه بالقضاء والقدر، وإن لم يشر إلىٰ ذلك بصورة تفصيلية في هذه القصيدة، فقد عبر عن حمده لله، ورضاه بكل ما قدر، بشكل موجز كما ذكرت سابقا.

لكن الشاعرين كانا يعانيان لحظة عبور تذكر الموت، وما تواجه الذات من صراعات تظهر عند عبور مثل هذه اللحظات «ومن الملاحظ أن ابن خفاجة لم يتطرق في قصيدته لما بعد الموت، بل إن هاجسه كان متمحورا حول الموت كحالة لابد من المرور خلالها، فكان العبور وحده أكبر باعث للتأزم في قلب الشاعر»[1]، وربما اقترب بعض الشعراء لوصف حالات الموت وتخيلها، كما صنع مالك ابن الريب، إلا أن تجربة الرفاعي تصف قلق الذات في لحظة الحياة عندما تتذكر الموت.

وهكذا كان الرفاعي يفكر في ما يقلقه قبل عبور الموت، وكيف يستطيع أن يرضي الذات لتقبل الموت من خلال قناعتها بما قدمته من أعمال وإنجازات، تليق بالطموحات التي رسمتها، وتلبي احتياجاتها النفسية لتقبل الشيخوخة، خاصة أن سيرة الرفاعي تعكس شخصية طموحة، حريصة علىٰ الإنجاز والتقدم، ومثل تلك الشخصيات يزداد قلقها وصراعها الذاتي لتحقق مزيدا من الإنجازات، ويزداد بصورة أكبر عندما تقترب لحظات التوقف والكف عن التقدم إذ «إن من لديهم حاجة مرتفعة إلىٰ الإنجاز سيكون عندهم أيضا خوف مرتفع من الموت، إذ يصبح الموت حينئذ بالنسبة لهم تعديا وانتهاكا لحقهم في الحياة والنجاح»[2].

ونجد التقارب بين التجربتين يظهر أيضا حين يعاتب الرفاعي من قبل الآخرين في انهماكه

(١) خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي راشد عيسىٰ ونضال الشمالي، مجلة جامعة النجاح، العدد:٨، (ص١٩٩٥).

(٢) قلق الموت، (ص١٢٦).

بالثقافة وطلب العلم، وترك الراحة وسائر الملذات، وهذه المعاتبات قد لا تكون حقيقية، لكن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر تجلب له مثل هذه التهيؤات أو المشاعر السلبية، وربما أراد الشاعر من خلال انشغاله بالثقافة أن تبقيه عمرا أطول ويكون له ذكرا بعد موته يعوض ما فاته، ويبقيه حياة ثانية «وقديما كان الافتخار بالسيف والركوبة واردا في شعرنا العربي، إلا أن شاعرنا لا يرىٰ في ذلك أهلا للفخر والتسلي، إن الشاعر (ابن خفاجة) ليجد في البحث عن هذا الرفيق الذي يمكن أن يحمل همومه»[1] أما الرفاعي فلا يمكن أن تتحقق له السكينة من خلال استناده للكتاب أو للصديق فقط، ولذا يبين الشاعر في الأبيات التالية شدة تضايقه من اللوم الموجه له، خلال بقائه في منزلة(بين بين):

٢٩- يا لائمي في العمر كيف أضعته ❋ لا الجد ساد، ولا الهوىٰ غلاَّب

٣٠- ما بين بين، فما صعدت إلىٰ الذُّرا ❋ أو كان لي في القانعين مآب

ومن التجارب الشعرية الحديثة، التي تناولت تجربة مواجهة الموت والقلق منه، تجربة أمل دنقل، الذي يعد نموذجا مختلفا نوعا ما عن تجربة من سبقه، إذ يشكل هاجس الموت اضطرابات عدة عند الشعراء مما يجعلهم مختلفين في التعبير عنه، وفي آليات دفعه والخروج من دائرته، فقلق الموت في شعر أمل دنقل - مثلا - «ليست كما كانت في القديم موت بطل، وإنما القضية موت طموح ورغبة في تجاوز الموت إلىٰ الحياة»[2]، وهذا ما جعل شاعرنا الرفاعي يظل في دائرة صراعه وقلقه، حتىٰ وصل لمرحلة الرضا والاستسلام بما قضاه الله وقدره.

والرفاعي في قصيدته «سبعون» متأثر فنيا بقصيدة أبي فراس الحمداني (إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب) من خلال الشكل الخارجي للقصيدة والمتمثل باتفاق

(١) خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي «قصيدة الجبل نموذجا»، (ص١٩٨٨).

(٢) دلالة الموت في شعر أمل دنقل، (ص٢٠٩) «بتصرف».

القافية بين القصيدتين، وتطابق عدة كلمات في أواخر الأبيات مثل: «رقاب - ركاب - شباب - شراب - سراب - عباب - تراب - طلاب - كعاب - إياب»، وكذلك التأثر ببعض المعاني الشعرية كالتحسر على الشباب، مع اختلاف في بقية المعاني والأفكار ونوع التجربة بشكل عام، حيث أظهر أبو فراس معاناته النفسية في الأسر وما لاقاه من الحساد والشامتين[1]، لكن التأثر ظهر من خلال الشكل الخارجي فقط، دون أن يتناص مع هذه القصيدة أو بغيرها بشكل مباشر، حرصا من الشاعر على استقلالية تجربته وتميز أفكارها وصورها، لاسيما أن موضوع القصيدة يحكي تجربة حياتية خاصة.

ب- التناص الداخلي:

«التناص الداخلي: وهو علاقة النص الأدبي اللاحق بنص أو بنصوص أو بمقاطع من نصوص المبدع نفسه»[2]، والرفاعي لم يشر إلى قلقه من هاجس الموت في قصائده السابقة وظهر قلقه في قصيدة «سبعون»، وفي رثائه لصديقه أحمد محمد جمال، حيث قال:

«تقاطر صحبي يبحرون إلى الغيب * فما بالكم خلفتموني يا صحبي

إلى أن يقول:

رويدكم إني على الأثر قادم * فشأنكم شأني ودربكم دربي

وقد لحق به بعد فترة قصيرة»[3]، ولذا تعد قصيدة «سبعون» مختلفة عما سبقها من قصائد الشاعر السابقة من ناحية الشكل وكذلك في المضمون، ولم تتداخل مع قصائده الأخرى إلا حين رثى صديقه.

(١) تجربة السجن في شعر أبي فراس والمعتمد بن عباد، عامر عبدالله، (ص١٠٣).

(٢) التناص الداخلي والخارجي في شعر المتنبي، (ص٣٣).

(٣) شاعر الوجدان والفضيلة، (ص١٨).

٤-اللغة:

أ- الألفاظ والتراكيب:

سادت الألفاظ الفصيحة والواضحة علىٰ أرجاء القصيدة، ورثاء الذات في الشعر العربي «محكم السبك، فصيح الألفاظ، بعيد عن التكلف والغموض، ألفاظه رقيقة، عذبة، واضحة، خالية من الغرابة، متداولة لغويا»[١]. وقد صورت الكلمات المتضادة الواردة في القصيدة حال الشاعر وما مر به خلال عمره من تقلبات في حياته، فنجد كثرة الطباق بين كلمات القصيدة، كما في قوله: «تجمع - تفرق»، «الرحيق - الصاب»، «المبدعين - الزائفين»، «بنيت - تصدعت»، «الجزر - المد»، «وشىٰ - خلت»، «الأصيل - الزيف»، واستدعىٰ الشاعر عدة كلمات تراثية غير متكلفة، مع استعانته بتنويع الضمير المعبر عن الذات، فقد وظف مثل: الضمير المنفصل (أنا) في قوله - مثلا -: «أنا من بنيت علىٰ الخيال قواعدي»[٢]، أو «ياء المتكلم» كما في قوله: «سبعون يا صحبي»[٣] - مثلا -، و«تاء المتكلم» كما في قوله - مثلا -: «فظمئت حتّىٰ لو أتيح شراب»[٤]، وغيرها.

واستعان الشاعر بأدوات النداء والاستغاثة، لتصوير قلقه كما في قوله: «يا صحبي وجل مصاب» في البيت الأول، واستدعىٰ ألفاظ التعجب والتهويل، كما في قوله:

٢- سبعون يا للهول أيّة حقبة * طالت، وران علىٰ الرحيق الصّاب

وعبر الشاعر عن هول هذه المرحلة ووصفها بالطول بكلمة حقبة، والحِقْبةُ من الدَّهر: مدّة لا وَقْتَ لها[٥]. فمن شدة ألم الشاعر وضيقه بحياته السابقة جعله يتناسىٰ مدتها، ولم يستطع أن

(١) سيميائية الموت في رثاء النفس مالك بن الريب أنموذجا، خديجة مواسة، (ص٢٧٦).

(٢) البيت رقم (٩).

(٣) البيت رقم (١).

(٤) البيت رقم (٦).

(٥) لسان العرب، (١/ ٣٢٤).

يحددها إلا بقوله: «طالت» لثقلها علىٰ نفسه فالألم والضيق يطيلان الزمن، بخلاف ساعات الفرح وساعات الشباب التي مرت بسرعة، إذ يقول:

٥- سبعون في درب الطّفولة شوكه ❋ أمّا الشّباب فليس ثمَّ شباب

ويلاحظ أن الشاعر يقف أثر السبعين في درب حياته منذ الطفولة، حيث إن الشوك ممتد منذ بدء السبعين، والطفولة عادة ما تكون مرتع السعادة والهناء، لكنها عند الشاعر محاطة بالأشواك، وهذه الصورة البائسة عن الطفولة رسخت في ذاكرة الشاعر، ولم تفارقه طول عمره، مما يشير ذلك إلىٰ خطورة هذه المرحلة في تشكيل شخصية الإنسان وأثرها علىٰ سلوكه، ومدىٰ اتساعها في ذهن الإنسان مقارنة بذاكرة الشباب، ولم يشبه مرحلة الشباب بشيء آخر كما فعل في مرحلة الطفولة، فبإمكانه أن يعبر عن سرعة انقضاء فترة الشباب واختفائها بسرعة بأي شيء آخر، لكنه كان يتحدث بلغة اللاشعور التي يغلب عليها التلقائية وعدم المنطقية في التعبير، مما يجعل القصيدة قريبة من المناجاة الإنسانية بعيدة عن التكلف، أو المنطقية التي يستند إليها بعض الشعراء في إظهار أفكارهم، ويخططون لها تخطيطا يعتمد علىٰ المنطق الزمني، كالبدء بالطفولة ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة حتىٰ الانتهاء بالموت، أو بالمنطق المكاني حيث يعبر الشاعر عن تنقلاته المكانية، أو غيرها من التقسيمات التي يرسمها الشعراء ليسيروا عليها في قصائدهم، بخلاف هذه القصيدة، فقد اتسمت بالتنقلات الفجائية، وفق وثبات نفسية لاشعورية، تحاكي لغة الإنسان المنفعل، الذي لا يراعي المنطق ولا يعتني بتسلسل أفكاره وفق المعتاد، وهذا ما يميز لغة الفنانين عن غيرهم، فهم لا يلتزمون بمنهج معين في نقل تجاربهم، بل يختلفون في ذلك، «وبهذا يقدمون لنا ما نلتمسه في الفن وما وضع في الفن من أجله، ألا وهو زيادة فهمنا لتجاربنا الخاصة وزيادة تعاطفنا مع الآخرين في تجاربهم المتعددة»[1].

ومن العناصر التي اعتمد عليها الشاعر في نقل معاناته عنوان القصيدة «سبعون» حيث جعله

(١) قضية الشعر الجديد، محمد النويهي، (ص٦٩).

بلا إسناد، مضفيا عليه الغموض والإبهام، كحال من يريد اقتصار الكلام واختصاره لضيق حالته، وعدم رغبته بالتطويل، بخلاف شعراء آخرين عبروا عن قدوم مرحلة السبعين وأسندوا للعنوان بعض الكلمات، كالقصيبي – مثلا – حيث عنون قصيدته «سيدتي السبعون» من باب السخرية منها والمفارقة حين احترمها وكان من المفترض أن تقابله بالاحترام لا بالإيذاء، بينما أرادها الرفاعي مبهمة للتهويل، وقد كرر الشاعر كلمة «سبعون» في القصيدة دون أن يسند لها في متن القصيدة فنجده يقول:

١ – سبعون يا صحبي وجلَّ مصاب * ولدىٰ الشّدائد يُعرف الأصحاب

ونجده يكرر ذلك في الأبيات: ١، ٢، ٥، ٧، ١١، ١٧، ٢٢، ٣٦

وقد اتبع سعد مصلوح أسلوب الرفاعي في عنونته للقصيدة حيث جعل عنوان قصيدته «سبعون» مكتفيا بها دون إسناد لها أو تعريف، إلا أنه أسند للسبعين في متن القصيدة[1] بقوله:

سبعون مرت، وعمر * من اللهاث قد تقضىٰ

سبعون مرت جهاما * يذرعن أفقك ركضا

وقد ذهب بعض النقاد إلىٰ أن شعر الرفاعي تكرر فيه ذكر الشيب والتحسر علىٰ الشباب، وتبرز فيه صور «مشابهة ترتبط بالقلق والتساؤل الذي كثر عند الرفاعي وبخاصة في نهاية عدد من قصائده. وليس ذلك القلق وهذا التساؤل إلا جزء من متطلبات الرومانسية التي لونت أكثر شعر الرفاعي»[2]، ومن ذلك – بحسب رأي المؤلف – قصيدة سبعون التي يصور فيها الصراع مع الزمن. ومع تأثر الشاعر الكبير بالرومانسية إلا أن شخصية الشاعر ظهرت بوضوح، بخلاف ما عليه القصيدة الرومانسية التي تتسم أحيانا بتقديم «الخيال علىٰ العقل، وتفضيله علىٰ التحليل

(١) قصيدة: سبعون، سعد مصلوح، جريدة الفنون، العدد:١، (ص٦٤).

(٢) شاعر الوجدان والفضيلة، (ص١٨).

النقدي، والهرب من الواقع، والالتجاء إلىٰ الحلم...وتشخيص الطبيعة ومحادثتها، واللجوء إليها وقت الأزمات»[1]، وفي هذه القصيدة استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته في مرحلة الشيخوخة تعبيرا دقيقا، يوافق ما أثبته علم النفس من سمات تتوافق مع أنماط تعايش الناس في مرحلة الشيخوخة[2]، وصرح بمعاناته دون الاعتماد علىٰ الخيال أو الأسطورة فعبر عن قلق الذات من هاجس الموت وهو في سن السبعين دون أن يتخذ من الطبيعة أو غيرها قناعا لذلك، بل كان واقعيا وواجه قلقه مباشرة، مستعينا بعناصر رومانسية أخرىٰ كالأسلوب الوجداني والعاطفي والشعور بالغربة والمثالية.

ويصور الشاعر معاناته معبرا عن القلق والضيق الذي يمر به، من خلال استراتيجيات وأساليب عدة، منها المبالغة والنفي التام لحصوله علىٰ أية آمال أو إنجازات، أو لقضائه أوقات سعيدة مر بها، كما في قوله: «وما هناك قباب» «فليس ثم شباب» «وليس ثقاب». دون أن يبين سبب ذلك أو أن يفصل فيه ليبقىٰ الأمر بعد ذلك غامضا محفوفا بأنواع الألم والحرمان الذي تعرض له الشاعر، ولتترك مساحة لخيال المتلقي في إدراك قسوة ذلك الأمر وصعوبته.

ب- التقديم والتأخير:

من سمات شعر الرفاعي ظاهرة التقديم والتأخير في عموم شعره، وفي قصيدته (سبعون) بصورة خاصة غلبت علىٰ أبياتها هذه الظاهرة، وقد أكد الأقدمون علىٰ الدلالات المتعددة لهذا التقديم والتأخير من الاهتمام بالمقدم له، والتأكيد والاختصاص وغير ذلك، وظاهرة التقديم والتأخير تتيح للشاعر إيجاد طرق تركيبية متنوعة داخل بناء الجمل لتناسب غرضه المطروح، لاسيما إن كان ما يتحدث عنه الشاعر يلامس مكامن نفسية عميقة كموضوع قلق الذات وهاجس الموت، والذي يتسم

(١) مدخل إلىٰ دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، نسيب نشاوي، (ص١٥٨).

(٢) علم النفس النمو من الجنين إلىٰ الشيخوخة، عادل الأشول، (ص٦٦٣).

باضطراب المشاعر وتقلبها، مما يؤدي لتغيرات سلوكية عدة، تؤثر علىٰ أسلوب الشاعر، حيث يقدم الشاعر في كثير من جمله الكلمات الدالة علىٰ موضوع القلق وصراع الذات لاشعوريا، لكونها أقرب إلىٰ حالته النفسية من غيرها، كقوله: «تعبت من الألم السنون»[1] فقدمت كلمة الألم علىٰ كلمة «السنون» لقرب هذه الكلمة من موضوع القصيدة ومحورها النابع من القلق وصراع الذات، وكذلك تقديم الجار والمجرور «من الركام» الدالة علىٰ الآلام المتراكمة، التي خلفتها السنين، في قوله: «حتىٰ تئن من الركام رقاب»[2]، وكذلك تقديم الجار والمجرور «عن آثارهن» لأنها نتيجة لتلك الأيام، التي سببت تضاعف القلق لديه في قوله: «فينم عن آثارهن إهاب»[3]، وتقديم المضاف والمضاف إليه «لدىٰ الشدائد» علىٰ الفعل في قوله: «ولدىٰ الشدائد تعرف الأصحاب»[4]، وكذلك قوله: «وإنما شزرا إذا نظرت إليه كعاب»[5]، وقوله: «حقاً رفعت علىٰ السّراب دعائمي»[6]، وقوله: «حنت إلىٰ عبَق التراب جوانحي»[7]، وقوله: «ركنتْ إلىٰ السفح القريب مطامعي»[8]، حيث نجد أن الكلمات المتقدمة دلت علىٰ القلق وكذلك دلت علىٰ ما سببه من مشاعر سلبية وانسحابية، جراء تلك السنين التي أثقلت كاهل الشاعر، ولم يستطع تحملها.

***

(١) البيت رقم (٢٠).

(٢) البيت رقم (٣).

(٣) البيت رقم (١٧).

(٤) البيت رقم (١).

(٥) البيت رقم (٢١).

(٦) البيت رقم (١٠).

(٧) البيت رقم (٢٣).

(٨) البيت رقم (٣١).

الخاتمة

*** النتائج:**

– تميزت قصيدة «سبعون» للرفاعي عن بقية قصائده السابقة، حيث استعان بوسائل فنية متعددة كالإيحاء والتصوير، واستطاع أن يتخلص من بعض الظواهر الأسلوبية السابقة في شعره.

– استطاع الشاعر أن يعبر عن قلقه من هاجس الموت بأساليب غير مباشرة من خلال استرجاع الماضي، وتهويل مرحلة المشيب، والشكوىٰ والألم.

– اتضحت الوحدة العضوية للقصيدة من خلال اتحاد عناصرها من صور شعرية وموسيقا وتراكيب وغيرها بالقلق.

– لجأ الشاعر لحيل نفسية توافقية لإعادة استقراره النفسي من خلال استعانته بالأصحاب والكتاب، ثم الرضا والاستسلام بقضاء الله، وكان الشاعر حريصا علىٰ أن ينوع في أساليبه الفنية ليؤثر في المتلقي، وليوصل مشاعره إلىٰ الآخرين بدقة وبطريقة فنية.

– جاءت صور القصيدة مركبة ومترابطة فيما بينها ومعبرة عن حالة الشاعر النفسية المتوجسة من الموت، وارتبطت الموسيقا بتلك الحالة، وأسهمت حروف المد في نقل مشاعره والتنفيس عن آهاته.

– تأثر الشاعر بتجارب من سبقه من الشعراء تأثرا غير مباشر حيث اقتبس منهم أساليب عدة لمواجهة هاجس الموت كالاستعانة بالأصدقاء والجمادات وبعض المفردات وغيرها.

– ألفاظ الشاعر في هذه القصيدة واضحة ومتداولة ومتأثرة بالتراث، واستخدم الشاعر أدوات لغوية متعددة كأدوات الاستغاثة والتهويل وغيرهما، كما قدم في كثير من جمله الكلمات الدالة علىٰ القلق لاشعوريا.

*** التوصيات:**

- الاستعانة بعلوم إنسانية أخرىٰ كعلم النفس والاجتماع وغيرهما في دراسة النص الأدبي، لتمنحه تفسيرات عدة، وتسهم في تذوقه.

- دراسة القصائد المتعلقة بوصف مرحلة الشيخوخة ومعاناتها عند الشعراء الآخرين، إذ هي خير معين لمعرفة الحالة النفسية لكبار السن وما يمرون به من صعوبات، ومعرفة طرق تجاوزها.

- عدم الاكتفاء بآراء النقاد الانطباعية، والسعي إلىٰ دراستها وتفحصها، وإن صدرت من نقاد لهم رؤية وبصيرة.

- الموازنة الفنية والموضوعية بين قصائد الشاعر عبدالعزيز الرفاعي الإخوانية وقصائد الشعراء الآخرين الذين شاركوه في مناسبات ومواقف أخوية متعددة.

- دراسة أدب المراحل العمرية الأخرىٰ كالطفولة والمراهقة وغيرهما، لدىٰ شعراء امتاز أدبهم في وصف تلك المراحل.

- البحث عن القيم الفنية والموضوعية التي اتسمت بها قصائد رثاء النفس في القديم والحديث.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

- أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة فنية وموضوعية. الشتوي، إبراهيم محمد.ط١.الرياض: دار الرفاعي، ١٩٩٩م.
- الأدب العربي الحديث «الرؤية والتشكيل» حمد، حسين علي.ط٦، الرياض، مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م.
- أصول علم النفس الحديث طه.فرج.ط٤، مصر: دار قباء للنشر بمصر، (٢٠٠٠م).
- تجربة السجن في شعر أبي فراس والمعتمد بن عباد. عبدالله، عامر. رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٤م.
- تراجيديا الموت في الشعر. هلال، عبدالناصر، ط١، القاهرة:مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٥م.
- تمفصلات القلق الإنساني بين النفسي والوجودي والاجتماعي. جراد، نوفل. الحياة الثقافية، وزارة الثقافة التونسية، السنة٢٤، ١يناير١٩٩٩م، ص١٧-٢٣.
- التناص وتداخل النصوص المفهوم والمنهج دراسة في شعر المتنبي.حمدي، أحمد.ط١، دار المأمون الأردن، ٢٠١٢م.
- حركية الحداثة العربية. خير بك، كمال. ط٢، لبنان: دار الفكر. ١٩٨٦م.
- حسرة المثقف علىٰ انحساره. البزري، دلال. مجلة الفيصل، الرياض، العدد:٤٧٩-٤٨٠، ٣٠ أغسطس ٢٠١٦م، ص١٦٨.
- خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي - قصيدة الجبل نموذجا -. عيسىٰ، راشد والشمالي، نضال. مجلة جامعة النجاح للبحوث الإنسانية، الأردن، جامعة البلقاء التطبيقية، مجلد٢٥، العدد:٨. ٢٠١١م.
- دراسة مقارنة في القلق من الموت وفقا لصورة الذات لدىٰ المسنين. محمد، علي عودة. مجلة آداب المستنصرية، جامعة المستنصرية، بغداد، العدد ٦٤، ٢٠١٤م، ص١-٢٣.
- دلالة الموت في شعر أمل دنقل. رضائي، رمضان. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد:٣٣، ٢٠١٧، ص٢٠٨-٢١٩.

- ديـر المـلاك «دراسـة نقديـة للظـواهر الفنيـة في الـشعر العراقـي المعاصـر».أطيـمش، محسـن. ط٢، بغداد: دائرة الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.
- ديـوان عبـدالعزيز الرفـاعي «شـاعر الأغـصان». الـردادي، عـائض «جمعـه ورتبـه وحققـه». ط١. الرياض: دار الرفاعي، ٢٠٠٧م.
- الـديوان في الأدب والنقـد. العقـاد، عبـاس والمـازني، إبـراهيم.د.ط. مؤسـسة هنـداوي بالمملكـة المتحدة، ٢٠١٧م.
- رثاء النفس بين بكاء ابن الريب وتأبين القصيبي. العساف، هيلة. مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية. الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المجلد:٢٣، العدد الثاني، يونيو٢٠١٥م. ٨٥-١٠٧.
- السمات النصِّيّة في قصيدة(سبعون)للشاعر سعد مصلوح. عطية، عبدالحميد. مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، ٢٠١٦م، ٨٥-١٧٨.
- سوسيولوجيا المثقفين.ليكلرك، جيرار، ط١، لبنان: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٨م.
- سيميائية الموت في رثاء النفس. مالك بن الريب أنموذجا. مواسة، خديجة. رسالة ماجستير، الجزائر، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، ٢٠١٢م.
- الـشاعر عبـدالعزيز الرفـاعي. قفـل القـصيدة ومفتاحهـا. حـسين بافقيـه، جريـدة القـبس الكويتيـة، ١٧ مارس ٢٠١٧م.
- شـاعر الوجـدان والفـضيلة. الثبيتي، جريـدي سـليم. (١٩٩٣/ ١٩٩٤)، مجلـة الفيـصل، الريـاض. س١٨، ع ٢٠٥. (١٩٩٣/ ١٩٩٤). ص١٥-١٨.
- الشباب والشيب في شعر ابن المعتز. الشافعي، جلال الشافعي. مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، دمنهور، العدد الثالث، المجلد الخامس، ٢٠١٨م. ص٦٨٩- ٧٥٦.
- الشيب في الشعر السعودي. الخطراوي، محمد العيد. مجلة علامات، جدة: النادي الأدبي الثقافي الأدبي ج٥٢، م ١٣، ٢٠٠٤م، ص١٣٤-١٧٧.
- عبدالعزيز الرفاعي أديبا.الحارثي، محمد. ط١، جدة :النادي الأدبي الثقافي الأدبي، (١٩٩٣).

- عبدالعزيز الرفاعي «صور ومواقف». باعطب، أحمد سالم. ج١، ط١. جدة: الناشر: عبدالمقصود خوجة، ١٩٩٦م.
- العلاقة بالزمن والصحة النفسية. مرسلينا، شعبان. نفسانيات المجلة العربية للعلوم النفسية، المجلد الثاني عشر، العدد: ٥٧، ربيع ٢٠١٨م.
- علم النفس النمو من الجنين إلىٰ الشيخوخة. الأشول، عادل. د.ط. مصر:مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨م.
- فليكن من شعراء الواحدة. ابن عقيل، أبو عبدالرحمن. جريدة الجزيرة، الرياض، العدد:٧٦٩٥. ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٣م.
- في الأدب والنقد. مندور، محمد. د.ط. مصر: نهضة مصر، ١٩٨٨م.
- في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، المطلبي، غالب. د.ط. العراق: منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية، ١٩٨٤م.
- في النقد الأدبي. هلال، محمد غنيمي. د.ط. مصر: دار نهضة مصر، ١٩٩٦م.
- قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية. دارة الملك عبدالعزيز»إعداد»، ج١، د.ط. الرياض، نشر: دارة الملك عبدالعزيز، ٢٠١٣م.
- قراءة في قصيدة «سبعون» لمعالي الدكتور عبد العزيز خوجة السبعون...والرحلة الإيمانية!! «مقاربة نقدية لنص شعري» د.يوسف حسن العارف، جريدة الجزيرة. يوم ٨/ ٦/ ٢٠١٢م.
- قصيدة: سبعون. مصلوح، سعد. جريدة الفنون، الكويت، العدد: ١٧٠، ١ نوفمبر ٢٠١٥م، ص٦٤.
- قضية الشعر الجديد. النويهي، محمد.د.ط. القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٦٤م.
- قلق الموت. عبدالخالق، محمد.د.ط. الكويت: سلسلة دار عالم المعرفة، ١٩٨٧م.
- القيمة الموسيقية للتكرار في شعر الصاحب بن عباد. القضاة، فرحان. مجلة المجمع اللغوي الأردني، السنة ٢٤، العدد: ٥٨ ، ٢٠٠٠م، ص١١٩-١٦٦.
- كولردج. بدوي، محمد مصطفىٰ. الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٨٨م.

- لسان العرب. ابن منظور، محمد.ج١، ط٣، لبنان: دار صادر، ١٩٩٣م.
- لماذا نُحب النوستالجيا؟ الطعاني، سليمان. صحيفة عمون الإلكترونية.تاريخ: ١٣/ ٩/ ٢٠١٨م.
- مدخل إلىٰ دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر. نشاوي، نسيب.د.ط. ديوان المطبوعات الجزائرية، ١٩٨٤م.
- المدخل إلىٰ علم نفس النمو. عوض، عباس. د.ط.مصر، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م.
- مراجعة كتاب «أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة فنية وموضوعية. إبراهيم محمد الشتوي»، الرشيد. عبدالله بن سليم «مراجع» مجلة عالم الكتب، الرياض، مج ٢١، عدد ٤-٥ (٢٠٠٠م).
- المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر. يعقوب، إميل بديع. د.ط. دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.
- من شعراء الظل محمد سراج خراز. بافقيه، حسين. جريدة الوطن، السعودية، الجمعة ١٤ يونيو ٢٠١٩م.

***

Bibliography

- 'Adab kilasikiu alkilasikiu: dirasat wamawdueiatu. alshatwi, 'iibrahim muhamad. ta1. alrryad:dar alrafaei, 1999m.
- Al'adab alearabiu alhadith «alruwyat waltashkili» hamdi, husayn eali. ti6, alriyad, maktabat alrishdi, 2006m.
- 'Usul eilm alnafs alhadith tah.farija.ta4, masir:dar qaba' lilnashr bimasar, (2000ma).
- Tajribat alsijn fi shier 'abi firas walmuetamid bin eabadi. eabdallah, eamir. risalat majistir, jamieat alnajahi, filistini, 2004m.
- Tirajidya almawt fi alshaer. hilal, eabdalnaasir, ta1, alqahrat: markaz alhadarat alearabiati, 2005m.
- Tamafasil alqalaq bishan alqadaya alnafsiat walwujudiat alshaamilati. jradi, nufli. alhayaat althaqafiati, wizarat althaqafat altuwnisiati, alsanatu24 ,1ynayir1999.sa17-23.
- Altanasu watadakhul alnusus binaa' walmanhaj dirasat fi almutanabi. hamdi, 'ahimad. ta1, dar shaer almamun al'urduni, 2012m.
- Harikiat alhadathat alearabiati. khayr bika, kmal.t2, lubnani: dar alfikri.1986m.
- Hasrat almuthaqaf ealaa anhisarihi. albazri, dalali. majalat alfaysal,alriyadi, aleudad: 479-480,30 'aghustus, 2016m. s168.
- Khitaab almawt fi shier aibn khafajat al'andilsi-qsydat aljabal namudhaja -.eisaa, rashid walshamaliu, nidali. majalat jamieat alnajah lilbuhuth al'iinsaniati, al'urduni ,jamieat albalqa' altatbiqiati, mjildi25, aleadadi:8. 2011m.
- Muqaranat fi alqalaq min almawt hasab surat alrida ladaa alakhrin. muhamadi, eali aleawda. majalat adab almustansiriat, aljamieat almustansiriati, baghdad, aleadd64, 2014, s1-23.
- Dalalat almawt fi shier 'amal danqul. ridayiy, ramadan. majalat kuliyat altarbiat al'asasiat aleulum altarbawiat wal'iinsaniat, jamieat babili, aleaddi:33, 2017, sa208-219.
- Dir "dirasat naqdiat lilzawahir alfaniyat fi alshier aleiraqii almueasiri". atimish, muhsan. ta2, baghdad: dayirat alshuwuwn althaqafiat aleamati, 1986m.
- Diwan eabdialeazizaei aljanah "shaeir al'aghsani". alradadi, eayd "jameah warutabah wahaqaqahu". ta1.alrryad: dar alrafaei, 2007m.
- Aldiywan fi al'adab walnaqdu. aleaqadi, eabaas walmazni, 'iibrahim.du.ti. muasasat hindawiun bialmamlakat almutahidati, 2017m.
- Ritha' alnafs bayn buka' aibn alriyb wa'abayin alqasaybi. aleasaafi, hila. majalat aljamieat al'iislamiat lilbuhuth al'iinsaniati. aljamieat al'iislamiati, almadinat almunawarati, almujaladu:23, aleadad althaani, yunyu 2015m. 85-107.
- Almulsaqat alnsiyt fi shieari (sbeun)lilshaaeir saed masluh. eatiat, eabdalhamid. majalat adab albasrat, jamieat albasrat, 85.2016-178.
- Susyulujya almuthaqafin. likilki, jirar, t1, libnani: dar alkitaab aljadidi, 2008m.
- Simayiyat almawt fi ritha' alnafsi. malik bin alriyb namudhaja. muasati, khadija. risalat majistir, aljazayar, kuliyat aladab wallughat aleulum aliajtimaeiat wal'iinsaniata, 2012m.

- Alshaaeir eabdialeazizaei aljinah. qufl wamiftahuha. husayn bafiqihi, jaridat alqabs alkuaytiati, 17 mars 2017m.
- Shaeir alwijdan walfadilati. althabiti, jiridi slim. (1993/1994), majalat alfaysal, alrayad. s18, e 205. (1993/1994). s15-18
- Alshabab walshayb fi shier abn almuetazi. alshaafieii, jalal alshaafieay. majalat kuliyat aldirasat al'iislamiat walearabiat lilbanat ,diminhuri, aleadad althaalithu, almujalad alkhamis,2018. 689- 756.
- Alshayb fi alshier alsaeudii. alharawi, muhamad aleida. majalat ealamati, jidat: alnaadi al'adabii althaqafii al'adabii ja52,m 13, 2004m, 134-177.
- Eabdialeaziz aleilmii 'adiba.alharthi, muhamad.ta1, jdat: alnaadi al'adabii althaqafii al'adbi, (1993).
- Eabdialeaziz alkabir "sur almawaqifi". biaetiba, 'ahmad salim. ja1, ta1. jidat: alnaashir: eabdalmaqsud khawjata, 1996m.
- Yuafiq bialzaman ealaa lawhat almafatihi. marsalina, shaeban. nafsaniat almujalat alearabiit lilealwm alnafsiti, almujalad althaani eashara, aleadidi: 57rbie 2018m.
- Numuu eilm alnafs min aljanin 'iilaa alshaykhukhati. al'ashul, eadil. du. ta. misr: maktabat al'anjilu almisriati. 2008m.
- Falyakun min shueara' lilkimbuyutar. abn eaqila, 'abu eabdalrahman. jaridata, aljazirat alrayadi, aleudadi: 7695. 24/10/1993m.
- Fi al'adab wanqadd. mandur, muhamad. du.ta. masir: nahdat masr.1988.
- Fi al'aswat allughawiat dirasat fi 'aswat almadi alearabiat, almatlabi, ghalb. du.ta. aleiraqi: manshurat wizarat althaqafat wal'iielam bialjumhuriat aleiraqiati, 1984m.
- Fi alnaqd al'adbi. hilal, muhamad alghunimi. du.ta. masra: dar alnahdat masr, 1996.
- qamus al'adab wal'adab fi almamlakat alearabiat alsaeudiati. darat almalik eabdialeaziz "'iedad",ja1,du.ti.alriyad,nshir:'idarat almalik eabdialeaziza,2013.
- Qira'at fi qasida "sabeun" limaeali alduktur eabd aleaziz khujat alsabeun...walrihlat al'iimaniatu!! "mjalat qira'at linasi shieri" di.yusif hasan alearif, jaridat aljazirati. yawm 08- 06- 2012m.
- Qasidat: sabewun. masluhu, saedu. jaridat alfunun, alkuayti, aleadad: 170 ,1 nufimbir, 2015 mi. si64.
- Qdiat alshier aljadidi. alnuwyhi, muhamad.du.ta. alqahirati: almatbaeat alealamiati. 1964m.
- Qalaq almawti. eabdalkhaliq, muhamad.du.ta. alkuayti: silsilat dar ealam almaerifati. 1987m.
- Qimat alshiear liltakrar fi shier alsaahib bin eabadi. alqudaati, farhan. majalat almujamae allughawii al'urduniu,alisanati24, aleadad: 58,2000,s119-166.
- Kulirj. bidwi, muhamad mustafaa. altabeat althaaniati, dar almaearif bimasar,1988m.
- Lisan alearbi. ana abna,mihamadu.j1,ta3,libnan:dar sadir ,1993m.
- Limadha nuhb alnuwstaljya? altaeani,sliman. sahifat eamuwn alalkitruniat. altaarikh: 13-09-2018m.
- Aldukhul 'iilaa dirasat almadaris al'adabiat fi alshier alearabii almueasiri. nashawi,nsib.du.ta. diwan almatbueat aljazayiriati, 1984m.

- Almadkhal 'iilaa eilam nafs alnumu. eiwad, eabaasi. du.ta.misir, dar almaerifat aljamieiati,1999.
- Murajaeat kitab "'adab eabdialeaziz alraf: dirasat faniyat wamawdueiata. 'iibrahim muhamad alshatwi", alrashida. eabdallah bin salim "marajie" majalat ealam alkutub, alrayad, maj 21, eadad 4-5(2000ma.)
- Almuejam aldiyniu fi eilm alearud walqafiat wafani alshaeri. yaequba, 'iimil bidiei. du.ti. dar alkutub aleilmiati,2010ma.
- Min shueara' alzili muhamad siraj kharaz. bafiqih, husayn. jaridat alwatan alsaeudiati, aljumeat14 yuniu 2019m.

❊ ❊ ❊